

روايات ابن العبري

غريغوريوس بن هرون بن توما الملطبي

(أبو العباس المسـتظهر بالله

(٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م)

مدة خلافته خمسة وعشرين عاما وخمسة أشهر ، وفي هذا العام ماتت ترکان خاتون أم السلطان محمود ، ويقال إنها كانت جريئة حكيمة يتصل نسبها بأفر سياب رأس ملوك الهون ، وأما أبوها فهو طغراج ملك الخزر ، ولم يبق تحت سلطة ابنها الا اصفهان ، ومع ذلك طمع فيه أخوه السلطان بركياروق فزحف على اصفهان بشرنمة من جنوده ، فأغلق أتباع السلطان محمود أبوابها في وجهه ووجه جنده ، ولكن أتباع بركياروق أصروا على فتح اصفهان ، ففتحوها وأدخلوا فيها سلطانهم بركياروق ، فمكث بها يوما واحدا ألت خلاله بأخيه محمود حمى شديدة توفى بسببها وهو في السابعة من عمره ، فانضوى زعماء اصفهان تحت لواء بركياروق وملكوه إياها .

وفي عام ٤٨٨ هـ / ١٤٠٦ لليونان ، (١٠٩٥ م) قدم سلطان قونية قلج أرسلان بن سليمان الى ملطية وحاصرها ، وأرسل أحد الزعماء سفيرا له ليفاوض مطران المدينة المسمى سعيد بن صابوني الذي دعي صاحب السدرات ، وكان رجلا قديسا وخبيرا حنكته تجارب الحياة ، فكلمه السفير باللغة اليونانية وبحضور الزعيم جبرائيل اليوناني صاحب المدينة قائلا : يريد السلطان أن تسلموه المدينة ويعد أنه سوف يعامل سكانها معاملة طيبة ، والا فسيفتحها بحد السيف عنوة ، ومن ثم تكون دماء المقتولين في رقبتكم ، فأجاب المطران السفير قائلا لا تهرف بما لا تعرف ، فليس بمقبور أحد ان يأخذ مدينتنا لان خيراتها كثيرة ففيها خبز لاكثر من عشرة أعوام ، ومياها تنبع من داخلها ، وفيها الكثير من الحاربيين الشجعان كما ترون ، وعندما كان المطران يتحادث مع السفير كان

جبرائيل اللعين واقفا خلفه يتسمع ساكتا وعندما انصرف السفير ، قال المطران لجبرائيل الخبيث : لقد كنت يامولاي اصفي لما قلتك والحري بنا أن نبعد السلطان عنا بمعسول الكلام ونفيس الهدايا وأنت على علم بما يعانیه الاغنياء والفقراء من الضيق ، فحقد هذا الخبيث على المطران ، وأوعز بقتل أحد الضباط في اليوم التالي ، وعندما علم المطران بذلك راح يتضرع الى جبرائيل ليكف عما بيته لذلك الضابط فغضب هذا اللعين على المطران وأخذ يوسعه شتما ، وبينما كان جبرائيل يسير على حصانه بين سوري المدينة عاد فرأى المطران فهوى بسيفه على رقبتسه ، فأزاده قتيلا ، ولم يتسن للمؤمنين أن يشيعوه ويواروا جثمانه في الكنيسة الا بعد يومين ، وأما السلطان ، فعندما علم بقدم الفرنج ترك ملطية وقفل راجعا .

وفي عام ٤٨٩ هـ وهو عام ١٤٠٧ لليونان (١٠٩٦)م، تكهن المنجمون بأن طوفانا كطوفان نوح سيحدث ، فاستقدم الخليفة المستظهر المنجم ابن عيسون ، وسأله عن صحة ذلك ، فأجاب ابن عيسون : تجمعت في عهد نوح الكواكب السبعة السيارة ببرج الحوت ، ولهذا وقع ذلك الطوفان العظيم ، وأما هذا العام فلا أثر لزحل في برج الحوت فلو كان مع سائر الكواكب لكان من المرجح أن يقع طوفان كطوفان نوح لكنه ستحتشد جماعات كثيرة من الناس في أحد الامكنة ، وسوف يأتي سيل عرم ويجرفهم فيغرقون كلهم ، وللحال وصلت أخبار مفادها ان الحجاج في مكة فاجأهم سيل عرم فأغرقهم كلهم .

وفي هذا العام أجهز جبرائيل اليوناني حاكم ملطية على أبي سالم الرئيس الصديق الايمان ، صهر آل عمران اذ دس له سما فقتله كذلك أجهز هذا اللعين على التجار المؤمنين الوردعين الآتية أسماؤهم :

برصوما ابن الراهبة ، وابنته وباسيل حوا ، وسهدو شماس

- ٢٢٥٥ -

طانطيني ، ونهب من بيت ابي منصور بن ملكا زهبا وفضة وبضائع
مختلفة ، كما سلب من كنسية المطران قنينة ميرون ، والكثير من
الصلبان والمباخر وغير ذلك من النخائر ، وخرّب البيوت ، وعمر
السور والقلعة بأحجارها •

بداية الحروب الصليبية ١٠٩٧

زحف الفرنجة الى المشرق

وفي عام ١٤٠٨ لليونان - (١٠٩٧ م) قدم ملكان فرنجيان وسبعة قمامصة الى انطاكية واستولوا عليها من الاتراك ، أما السبب المعلن لقنومهم فهو أن التركمان بعدما استولوا على فلسطين وسورية وغيرهما من الاصقاع شرعوا يعاملون الحجاج المسيحيين المتوجهين الى بيت المقدس معاملة سيئة ، ولاسيما الحجاج القادمين من ايطاليا ونواحيها ، ولهذا تجمسوا وجهازوا جيشا حاشدا وقصدوا بادىء ذي بدىء الى اسبانيا ، فدخلوا مدنها ، وقتلوا الكثير من العرب ، ومثلوا بهم ففقؤوا أعينهم ، وقطعوا أذانهم وجدعوا أنوفهم ، ثم واصلوا مسيرهم الى القسطنطينية ، فمنعهم الكيس ملك اليونان أن يعبروا من هناك ، وظلوا يحاصرون العاصمة سبعة أعوام ، ولكن نون جدوى فقرر الافرنج أن يتحولوا الى انطاكية فحاصروها مدة تسعة أشهر ، لم يتمكنوا من احتلالها ، ولهذا تأمروا سرا مع الفارسي روزبه حارس البرج الذي كان بجانب مخاضة كشكروف وأغروه بذهب كثير ، وكان ذلك البرج مقاما على دعائم حديدية فدخلوه ليلاً وتسلقت جماعة منهم السور بالحبال ولما ازداد عددهم فوقه ، شرعوا ينفخون بأبواقهم في آخر الليل ، فلظن الحاكم التركي يفسيان أن الفرنجة دخلوا القلعة فداخله خوف شديد ، فما كان منه إلا أن توجه نحو باب المدينة وفتحها وهرب مع ثلاثين رجلا باتجاه طريق حلب ، وما إن انبلج الصباح حتى شرع يصرخ ويقول : كيف تخلت عن المدينة وتركت أموالى وأهلي وأولادي ؟ ثم أخذ ينظر نحو انطاكية وبيكيها ، ولشدة حزنه هوى عن فرسه فأركبه أصحابه غيره الى أن سئموا فتركوه مطروحا

على الأرض وانصرفوا فلقية حطاب أرمني ، وعندما عرفه قطع رأسه وذهب به الى الفرنجة .

على هذا النحو سقطت أنطاكية بيد الفرنجة فبطشوا بمن فيها من العرب والأتراك ، وسلبوا خيراتها وولوا عليها أحد القمامصة واسمه بوهيموند ، وقد بقي الأفرنج في انطاكية مدة خمسة عشر يوما لا يجدون شيئا يأكلون حتى اضطروا ان يأكلوا لحوم خيولهم ، ولما علم السلطان بركياروق باحتلال الفرنجة لانطاكية ، جهز جيشا عظيما قوامه مائة ألف فارس وسيره الى انطاكية ، وعندما بلغ الجيش بغراس خيم هناك ، وشاهد احد ملوك الفرنج في نومه حلما ، فحفر مكانا في بيعة القسيان ، فوجدوا فيه مسامير صليب الرب يسوع فصاغوا منها سنان رمح وصلبها وجعلوه لواء زحفوا تحته نحو الأتراك ، فنصرهم الرب على الأتراك وقتلوا منهم اناسا كثر ضاقت بجثثهم الأرض على سعتها .

ويعد ذلك قصد الفرنجة المعرة ، فدخلوها ويطشوا بنحو مائة ألف نسمة من سكانها وعاثوا فيها فسادا مدة أربعين يوما يسرقون ، وينهبون ومن ثم قصدوا الجبال فبطشوا بالكثيرين من النصيرية ، ثم اتجهوا نحو لبنان فحصروا عرقة قرب طرابلس مدة أربعة أشهر ، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها فتركوها وقصدوا شيزر بين حمص وطرابلس فانصاع صاحبها ابن منقذ العربي لهم ، وقدم لهم الجزية ، فتحولوا عنه الى حمص فأذعن لهم صاحبها جناح الدولة ، فتحولوا عنها ايضا الى طرسوس والمصيصة وأنه (١) .

وكان الترك يومئذ يشغلون سروج في نواحي حران والرها وكان الأرمن يتولون على بلاد زغما غربي الفرات قرب البيرة ، وكان باسيل كبيرهم متوليا رعبان وكيسوم بين حلب والرها ، وكان ايلغازي ابن ارتق في سميساط على شاطئ الفرات الغربي ، أما مرعش والجبل الأسود فكانتا بيد ابناء فلرطس الأرمني . وكانت قيليقية وعين زربة بنواحي المصيصة في ملك بني رافان الأرمن أما

طنكريد ملك انطاكية فانه حشد الجيوش وزحف الى بلاد الترك واستولى على قلاع وحصون كثيرة ، ثم توجه الى منبج وبالس وعاد في الربيع الى طرابلس ليطلع الخيل العشب .

لكنه لما استفحل أمر الفرنج لم ير الترك بدا من مرضاتهم فبعث رضوان صاحب حلب إلى طنكريد باثنتين وثلاثين ألف دينار وعشرين حصانا أصيلا ، وأربعين قطعة من القماش الفاخر ، وأرسل اليه صاحب صور سبعة آلاف دينار ، وصاحب عسقلان أربعة آلاف دينار ، وصاحب شيزر أربعة آلاف دينار ، وعلي الكردي صاحب حماة ألفي دينار ، وأبرموا جميعا الهدنة الى زمن الحصاد ليعطوا الغلال للفرنج .

الاستيلاء على بيت المقدس

قوي أمر الافرنج في الشرق فوجهوا جيوشا ضخمة الى فلسطين برا وبحرا وحاصروا في طريقهم يافا واحتلوها في عدة ايام ، ثم بلغوا بيت المقدس فاحدقوا بالمدينة من كل صوب وبنوا حولها عدة ابراج خشبية وترابية واقاموا عليها المنجنيقات والعرادات وواصلوا الحرب اربعين يوما .

وكان بيت المقدس يغمى يومئذ بالناس والعسكر المصري والعدد الحربية وكان صاحبها افتخار الدولة الافضلي قد أبعد عنها المسيحيين فاحتشد الفرنج في برجين ابتنوا احدهما عند الجهة الجنوبية من باب صهيون ، والآخر عند باب مار اسطفانس في الجهة الشرقية فصار العرب يرمون برج صهيون بالقذائف المحرقة ، لكن سرعان ما دوت صيحة بين العرب تقول ان الفرنجة دخلوا من الجهة الشرقية ، ومن ثم عملوا السيف في رقاب أهل المدينة اسبوعا كاملا وقد قتلوا أكثر من سبعين ألف عربي في المسجد الأقصى وسلبوا من عند الصخرة أربعين قنديلا فضيا زنة كل منها

ثلاثة الاف وستمائة درهم ، كما نهبوا من قبة الصخرة مائة وأربعين قنديلا فضيا وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وسبعمائة درهم ، واخذوا كذلك مائة وخمسين من القناديل الصغيرة بينها عشرين قنديلا من الذهب المصري ، وكان بين ما نهبوه ايضا منارة فضية تزن أربعين رطلا سوريا ، علما أن الرطل السوري يساوي ستة أرطال بغدادية ، أضف الى ذلك الكثير الكثير من الأواني والذخائر الفاخرة ، وكان أول من ملك من الفرنجة في بيت المقدس غودفري الذي تسلم حكمها سنة ١٤٠٩ لليونان (١٠٩٨) م تولى سنتين وتوفي ، فخلفه في حكم بيت المقدس بلويين وقد تولى امر هذه المدينة مدة سبعة عشر عاما

ولما علم المصريون بما جرى في بيت المقدس زحف الأفضل ابن أمير الجيوش بجيش عظيم عام ١٠٩٩ فالتقى مع الفرنجة قرب عسقلان ، فتغلب عليه الفرنجة ويطشوا بالكثير من جنوده ، ومن ثم واصلوا مسيرهم الى عسقلان ، فقدم سكانها اثني عشر ألف ديناراً للفرنجة فقتلوا بذلك وغادروا عسقلان راجعين الى القدس .

صراع السلطان بركياروق وأخيه محمد

وفي عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م ثار أقطاب الأتراك على السلطان بركياروق انتقاما من الوزير مجد الدولة الذي كان يسيء معاملتهم ، ففتكوا بهذا الوزير لكنهم لم ينصبوا بركياروق بل توجهوا الى أخيه محمد ويايعوه بالسلطنة ، ورضي السلطان عن ذلك وأصدر فرمانا رسميا سمي (فرمان الرضا) وتسمى محمد « غياث الدنيا والدين أبا شجاع محمد » فزحف بركياروق الى بغداد متتبعا أخاه محمدا ، فالتقى جيشاهما ودارت بينهما حرب سجال ، ينتصران وينكسران .

وفي عام ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م توفي الطبيب البغدادي يحيى بن جزلة واضع كتاب المنهاج الشهير الذي يتحدث عن الأوبية والأغذية

البسيطة والمركبة ، والذي لا يزال متداولاً بين أيدي أطباء هذا العصر ، ومما يذكر ، أن يحيى هذا كان نصرانياً ، قرأ المنطق على يدي أبي علي بن الوليد ، وقد أقنعه أبو علي السفسطي « أن الاتحاد الحبي والاقنومي على زعم النساطرة لا يمكن تصوّره في الطبع الإلهي » ، وبذلك حسن له الإسلام فأسلم ، والجدير بالذكر أن يحيى هذا كان غنياً لكنه لم يعالج مريضاً قط بدون أجره ، إلا أصدقائه فقط .

معارك صنجيل مع الطرابلسيين والدمشقيين والحماصنة .

وفي عام ١٤١٤ يونانية (١١٠٣) م بلغ العرب أنه ليس مع صنجيل في طرطوس إلا ثلاثمائة فارس فاتفقوا على أن يغيروا عليه من طرابلس ودمشق وحمص ، فوجه مائة من فرسانه نحو الطرابلسيين ومائة نحو الدمشقيين ، وخمسين نحو الحماصنة ، أما الخمسون الباقية فأبقاها بقيادته ، وعندما التقى الجمعان فر الحماصنة والدمشقيون إلى الجبال ، علماً أنهم كانوا يزيدون على خمسة آلاف محارب ، وأغار صنجيل على الطرابلسيين الذين كانوا يقدرون بثلاثة آلاف محارب ، فدحرهم وتتبع العرب المهزومين هو وفرسانه الخمسون ، فأهلك من العرب زهاء سبعة آلاف ، ومن ثم ترك قيليقية قاصداً طرابلس فأغار عليها ، ولكنه لم يتمكن منها فحاصرها سبع سنوات واحتلها عام ٠٠ (٢) ويسط سلطانة على طرطوس، وبعطش بسكانها من العرب واقتحم قلاعاً عدة .

وفي تلك الفترة قدم عن طريق البحر قمص آخر ، فحاصر عكا وضائق سكانها ، واحتل الفرنجة الرها ، ومن ثم راحوا يفتنون ويسبون البلاد السورية من العرب البلد تلو الآخر .

احتلال الأتراك لمدينة ملطية

كان الأمير ابن دانشمند صاحب كيبوكيا التركي يثقل في مطالبة صاحب ملطية جبرائيل اليوناني ، وكان ابن دانشمند هذا يأتي الى ملطية صيفا فيعيث فيها فسادا .

ويأكل غلالها ثم يفادرها شتاء ، ولهذا اغرى جبرائيل اليوناني الفرنجة باحتلال مدينته ملطية ، وأقسم لهم ثلاثا أنه سيسلمهم المدينة ، فصدقوه وسار الملك بوهموند الى ملطية وهو مطمئن ليأخذها ، على أن جماعة من الأرمن كانوا منذ أيام فيلردين يتولون بعض المناطق منهم كوغ باسيل اي اللص صاحب كيسوم ورعبان وأبناء روبين حكام بعض نواحي من أرمينية خافوا ان يستولي الفرنج على ممالكهم ويطرئونهم منها ، فكتبوا سرا الى اسماعيل بن دانشمند واتفقوا على أن يكمن لهؤلاء الفرنجة ، ولما وصل بوهموند قرية حفنة قرب ملطية أخذ ذلك الخبيث جبرائيل اليوناني يماطله ويسوفه ويؤجله من يوم الى آخر حتى وصل اسماعيل بن دانشمند وكمن للفرنجة فأسر بوهموند وأرسله الى سبسطية وتوجه إلى ملطية وطوقها ، ومن ثم أخذ جبرائيل يتمادى في ظلمه للاهالي الى أن تدمر منه ضابطان استقدا الأتراك إلى المدينة ، فدخلوها وكان ذلك يوم الأربعاء ١٨ ايلول ١٤١٣ لليونان ، (١١٠٢) م وفي النسخ العربية عام ١٤١٢ لليونان (١١٠١) م فسلب الأتراك ما في ملطية المنكودة الحظ من الثروات ، كذلك أباح ابن دانشمند لجنده ان يستولوا على أموال هذه المدينة لكنه لم يسمح لهم بأسر اهاليها ، فقد احسن ابن دانشمند معاملتهم ولم يؤذوا أحدا منهم وردهم الى بيوتهم ، بل احضر من بلاده المزيد من الثيران والقمح والحاجيات ، وغير ذلك من المؤن ووزعها عليهم ، ولهذا نعم اللطيون في عهده ببحبوحة من العيش ، ثم ولي عليهم حاكما تقيا ورعا يدعى باسيل ورحل .

وأما جبرائيل الخبيث ، فقد أنزل الله غضبه عليه ، فصار

الأتراك يسومونه سوء العذاب ، ولطالما ذكره النصاري بما كان منه من المظالم ، والتعدي على حياة الآخرين وخاصة على المطران الورع ، والزعماء المضطهدين الذين بطش بهم ، وبعد أن بالغ الأتراك في سبه وأشبعوه شتما توجهوا به الى قلعة قطيعة حيث كانت تسكن زوجته ، وطلبوا اليه ان يأمر زوجته بأن تسلمهم القلعة ولكنه راوغهم وخاتلمهم ، وقال لزوجته سلمي القلعة وهذه اشارة مني . اني بعثت اليك قبل ايام فتى اسمه ميداس - علما أن ميداس لفضة أرمنية معناها لاتسلمي - ولما اكتشف الأتراك مكره فتكوا به ورموا جثته الى الكلاب واستقدم ابن دانشمند ملك الفرنجة بوهيمند الى ملطية ثم باعه بمائة الف دينار ، فعاد هذا الى انطاكية وتنازل عنها لابن اخته ورجع الى بلاده.

وفاة السلطان ركن الدين بركيارق

وفي عام ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) ابتلى السلطان ركن الدين بركيارق بأمراض عدة ومختلفة كالبواسير والسل وغيرها من الآفات ، فأدرك أن منيته قد دنت ، فاستخلف الأقطاب بأمر ابنه ملكشاه الصغير ، وبعث به الى بغداد ونودي به ويلقب جلال الدين ملكشاه ، علما أنه لم يكن قد تجاوز الرابعة من العمر ، وتوفي والده بركيارق فدفن في اصفهان ، وعندما كان في بغداد قدم اليها عمه السلطان محمد فخاف البغداديين ان يختلف السلطانان ، فيكونوا هم مرتعا للسلب والنهب ، ولما كان الأمير اياز وهي الملك ملكشاه يحظى بقسط محمود من الزكاء والدهاء ، وقائدا لجيوش بركيارق وبالتالي فهي تأتمر بأمره ، ذهب الى السلطان محمد واستحلفه قائلا ان هذا الفتى ، هو ابن أخيك وينبغي أن تحوطه برعايتك وأن تعمل على توطيد حكمه ، فأجابه السلطان محمد قائلا ان ملكشاه هو ابني ، ووعده خيرا ، فتركه الأمير اياز الذي زار السلطان ملكشاه وحظي بحسن ضيافته ، وفي اليوم التالي أقام الأمير مأبة دعا اليها السلطان فلبى الدعوة ، ولسوء الحظ حضر كاتب متدبر

بدرج تحت ثيابه وكان واقفا يخدم ولا يتحرك الا بصعوبة وبطء
فأثار شكوك السلطان ، فأوحى إلى أحد عبيده ان يستطلع أمر
تعثره في زهابه وايابه فذهب العبد وتلمس الكاتب بحجة
مداعبته ، فأحس أن تحت ثيابه برمح ، فأخبر السلطان
بذلك ، فقال السلطان لنفسه اذا كان الكتاب يتدرعون ، فما هو
شأن الفرسان الأتراك ؟ ورجح أن أياز يبطن له المكر والغدر ،
فأشار إلى مرافق له أن يضربه ويقتله ففعل ، وعندما علم الأتراك
حلفاء أياز بذلك حملوا ما أمكنهم من أموالهم وأموال غيرهم وفروا
الى سورية .

وفي آذار ٤٤٩ هـ - ١٤١٧ م لليونان (١١٠٥ م) فاضت
الأنهار ولاسيما الفرات فخرّب الكثير من دور بغداد ، وقد بلغت
المياه دار رجل غني ، فكانت تغمرها ، فوضع أهله وأمواله في
سفينتين وقصد مكانا عاليا ، وبعد ان عبرت السفينتان قليلا غرقت
احدهما ، وقد كان على متنها فتاة مع امها وتسع جوار غاليات
الثلث فغرقن جميعا وغرق مامعهن من متاع ، وعندما رأى ركاب
السفينة الثانية ذلك ، عادوا الى دارهم ، وقد تضاءلت المياه في
اليوم التالي ، فحمد الناس الله وامتحوا أحكامه التي
لا تترك ، وأتقنوا ان نجاة الناس بأمر الله .

وفاة دانشمند

وفي هذه السنة عينها توفي في سبسطية دانشمند بعد ان تولى
مدينة ملطية عامين ، فقدم قلج أرسلان لحاصرتها
في ٢٨ حزيران ، ونصب المنجنيقات على برج مستدير في الشمال
الشرقي من المدينة التي احتلها باليعين بعد معارك وليس
بـالسيف ، وذلك في الثـلاثاني مــــن
ايلول ١٤١٧ لليونان (١١٠٦ م) وقد احسن معاملة الاهالي .

وفي سنة ٥٠٠ هـ - ١١٠٦ م) كان الأمير التركي جكرميش واليا على الموصل فعزم ان يتمرد على السلطان محمد فخلع السلطان الأمير جكرميش التركي هذا ونصب مكانه الأمير جاولي وزوده بجيش جرار ، وعندما التقى بجيش جكرميش عند اربيل هزم جكرميش واسر لكن أهل الموصل تحالفوا مع زنكي بن جكرميش واحتشدوا استعدادا لمقاتلة جاولي ، واستنجدوا بقلج أرسلان بن سليمان بن قطلمش ، سلطان قونية ، أما جاولي فقد دخل الموصل منتصرا ومعه جكرميش أسيرا وحفر بئرا عميقا ورمى جكرميش فيه مخافة أن يخطفه الأهالي ، ولم يلبث جكرميش أن لفظ أنفاسه في هذا البئر المظلم .

وكان في وقعه جكرميش ، أبوطالب بن كسيرات الموصلية لكنه هرب والتجأ الى صاحب اربيل ابن موسك ، فبعث جاولي الى ابن موسك هذا طالبا منه أن يرسل له أبا طالب هذا فلبى طلبه ، وقام بالمقابل وأفرج عن واحد من أبناء صاحب اربيل كان جاولي قد أسره ، وعندما قدم ابن كسيرات لزيارة جاولي ، وعده بأن يعطيه الموصل وتعهد بأن يجمع له مقداراً من الذهب من معارفه واصدقائه ، ولكن العدو اللدود لابن كسيرات قاضي الموصل ابن ودعان ، اتفق مع جاولي ووعدته أن يسلمه الموصل شريطة أن يبطلش بابن كسيرات ، فنفذ جاولي ذلك وأرسل له رأس خصمه فغضب أتراك الموصل على ابن ودعان وهجموا عليه وقتلوه ولم تكن قد مضت على فعلته هذه أيام معدودات .

وفاة السلطان قلج أرسلان

وفي ذلك الحين قصد قلج أرسلان جزيرة قردو قادمة من بلاد الروم ، فهرب جاولي الى مدينة بلد وغزاها ، ثم تحول عنها الى سورية ، فدخل قلج أرسلان الموصل واحتلها دون قتال ، وصفح عن زنكي بن جكرميش وأصحابه ولم يؤذ أحدا منهم ، وأعاد القاضي

عبيد الله بن القاسم الشهرزوري الى مكانته ومنصبه ، ومنع الخطبة باسم السلطان محمد في الموصل ، وجعلوا يخطبون فيها باسم قلعج أرسلان بعد الخليفة ، ونصب في القلعة شحنة اسمه بزيميش ، وجعل ينادي باسم ابن ملكشاه ملكا ، وهو لا يزال في الحادية عشرة العمر ، وأسكنه مع أمه هناك في البلاط وزحف الى الخابور برفقة خمسة آلاف فارس ، وأما الأمير جاولي ، فقد تحالف مع صاحب حلب رضوان ، وقصد الخابور بأربعة آلاف من الفرسان الشجعان والمدربين حيث وقعت معركة طاحنة تعد بحق ملحمة بينه وبين قلعج أرسلان ، وقد أظهر شجاعة نادره ومنقطعه النظير ، فقد استطاع أن يخترق صفوف جيش خصمه وضرب يد حامل رايته وبترها ، ثم هجم بنفسه على جاولي وطعنه بالسيف ولو لم يكن جاولي يلبس درعا حديديا لكانت ضربة قلعج أرسلان الجريئة هذه قد مزقت قلبه ، وعندما لاحظ أصحاب جاولي ورضوان شجاعه قلعج أرسلان واستبساله بينما كان أصحابه متلكئين انقضوا على أصحابه ، وبطشوا بهم ، فخاف عندئذ قلعج أرسلان وأيقن أنه بقي وحيدا كما أيقن أنه سيموت لأنه إن عفا عنه رضوان وجاولي فإن السلطان سوف يقتله لأنه كان قد منع الخطبة باسمه في الموصل ، لهذا كله ألقى بنفسه وهو على حصانه في نهر الخابور ، وظل يقاتل ويطعن كل من تبعه ، ولكن برعه الحديدي كان أثقل من حجمه وشجاعته ، وسرعان ما هوى حصانه في مجرى النهر العميق فغرق ومات ، وبعد عدة أيام لفظته مياه الخابور الى الشاطئ ، فرأه بعض المارة فنقلوه ودفنوه في مقبرة الشمسانية (٣) ، وأما رضوان ، فقد قصد أطراف الرقة بينما رجع جاولي الى الموصل ، حيث فتح له أهلها الأبواب فدخلها دون قتال ، وألقى القبض على أحد حجاب جكرميش وصار منه أربعين ألف دينار من الذهب ، ثم طلب من بزيميش أن يتخلى له عن القلعة وعن كل ما سلبه من أهالي الموصل مقابل أن يغادر بسلام الى بلده ، فانصاع بزيميش لأوامر جاولي حالا لأن حاميه ومولاه قلعج أرسلان كان قد مات ، فغادر القلعة ومعه أهله وزوجة قلعج أرسلان

وأهلها وقصد ملطية ، وأما ابن قلج أرسلان ملكشاه الفتى ، فقد كان جاولي أرسله الي السلطان.

بعد ذلك قصد جاولي الجزيرة واضطهد سكانها فاضطر حباشي ابن جكرميش أن يقدم له ستة آلاف دينار وحصانا عربسي الأصل ، فتركها وتحول عنها ميمما شطر الموصل حيث عزل القاضي ابن الشهرزوري ونصب مكانه أبا بكر الاربلي ، لكن هذا الانتصار قد غره فتفطرس وتمرد وخلع طاعه السلطان غياث الدين محمد ، ولم يعد يبعث اليه كعابته شيئا مما كان يغنمه ، فارتاب السلطان وتشكك في نوايا جاولي ، فسير اليه عدة أمراء بقيادة الأمير مودود على رأس جيش عرمرم ، وذلك سنة ٥٠٢ هـ - (١١٠٨ م) ، وعندما علم بذلك جاولي حصن مدينته ، وترك فيها زوجته - وهي أخت برسق أحد أمراء الموصل ، ونشر المدافعين فوق السور وطلب منهم أن يدافعوا عنه وأن يحموا المدينة ، ثم غادرها خيفة أن يحاصر وهو فيها ، وخرج وكأنه يبحث عن رجال ينجوه في صد الغزاة القادمين ، واصطحب معه قمص فرنجي يدعى بلدوين ، كان قد أسره من قبل ، ووعده بالافراج عنه إن هو قدم له سبعين ألف دينار ، وأفرج عن لديه من الأسرى الغرب ، وأن يخدمه مع سائر الفرنجة كلما احتاج الأمر ذلك ، ثم طلب اليه أم يقيم في قلعة جعبر الي أن ينفذ هذا الاتفاق ، فاستقدم القمص بلدوين ابن اخت له يدعى جوسلين وأودعه لدى الأمير رهينة مكانه وذهب هو ليعد الذهب الذي تم الاتفاق عليه.

وأما أهالي الموصل ، فقد أثقلت كواهلهم الضرائب التي فرضتها عليهم زوجة جاولي التي بقيت في الموصل فصعد جماعة من عملة الجص الي برج من أبراج المدينة وأطلقوا صيحات مدوية بشعار السلطان الكبير غياث الدين محمد ، ثم دخل الأمير مودود وصحبه الموصل واحتلوها فلانت زوجة جاولي بأخيها الأمير برسق ، وأما جاولي نفسه فقد قصد إيلغازي والي نصيبين وماردين الذي كان في

ربعان قرب الخابور في تلك الايام ، وقد حاول جاولي جاهدا أن يقنع ايلغازي بالتحالف معه ، ولكن ايلغازي تركه ففسار الى قلعة ماردين ، وبعد ذلك قصد جاولي الى الرحبه وحاصرها مدة سبعين يوما ثم بعث يطلب من جوسلين أن يأتي من قلعة جعبر ، فأعطاه حصانه ، ووشحه بحلة ملكية ، وأرسله الى خاله بلديون يستعجله في جمع الذهب والافراج عن الأسرى العرب ، وعندما بلغ جوسلين أنطاكية أعطى الى طنكريد صاحبها ثلاثين ألف دينار أرسلها هذا بدوره الى جاولي مع مئة أسير وأسيرة من العرب من مدينة حلب . وغادر جاولي متوجها الى الرقة فحاصرها مدة طويلة ، فبعث اليه السلطان غياث الدين الأمير حسين بن أتابك يدعو للعودة الى خدمته وطاعته ، والعودة كما سلف إلى الموصل ، فرفض جاولي هذا العرض ، وزحف الى بلس فحاصرها ودمرها وبطش بأهلها ، ولما علم رضوان صاحب سورية وحلب بما فعله جاولي ببلاده استنجد بملك أنطاكية طنكريد ، فبادر لنجده على رأس جيش مؤلف من ألف وخمسمائة فارس افرنجي وستمائة فارس تركي من أصحاب رضوان نفسه ، كما استنجد جاولي بجوسلين وبلديون فأتيا لنجده أيضا ، ونشبت معركة عند تل باشر أسفرت عن تغلب فرنجة وأتراك رضوان على فرنجة وأتراك جاولي ، وقد قتل في هذه الواقعة كثير من الأتراك ، وأما الفرنجة فلم يقتلوا بعضهم بعضا ، بل كانوا يكتفون بأن يلقي أحدهم الآخر عن صهوة جواده ، وإثر ذلك انهزم جوسلين وبلديون الى تل باشر في مجموعة من جند جاولي ، فعالجوا جراحهم ثم ربوهم اليه .

ولما أيقن جاولي أنه قد خسر وهنت عزائمته وخارت ، فلم ير وسيلة إلا الاستعانة ثانية بالسلطان فبدل اسمه وهيئته وسارع في بعض اصحابه من سورية الى خراسان قاطعا ثلاثمائة وستين فرسخا في سبعة عشر يوما ، وعندما بلغ المعسكر ، قال لدليله في الطريق : أنا جاولي نفسه أريد خيمة الأمير حسين وكان سلف وراه من قبل في الرحبة فاصطحبه هذا الى السلطان وهو يحمل كفته فعطف عليه السلطان وجعله من بطانته ، أما بزيميش فأخذ زوجة

قلج أرسلان من الموصل الى ملطية ، ونادى بطغرل أرسلان بن قلج أرسلان الفتى السلطانا ، وصدف أن كان هناك أمير ثان يدعى أرسلان ، فطلبت أمه أن يبطلش بابنها هذا ويتزوجها ، ثم اتفقت أم الفتى مع بعضهم فقبضوا على أرسلان وسجنوه فاعتقد الناس أنهم قتلوه لكنهم ما لبثوا أن أرسلوه بعد سنة حيا الى السلطان غياث الدين بخراسان ، فبعث هذا الى ملطية السلطان ملكشاه بن قلج أرسلان فنادوا به ملكا وخلع طغرل أخاه الصغير وسجن أخويه عربا ومسعودا ، وأما ملكشاه فقد بقي في ملطية عدة أيام يضايقه ويشدد عليه ابن دانشمند ، فقصد ملك الروم الكسوس يستنجد به فاستقبله وأكرمه وأجزل له العطاء ، وفي طريق عودته نصب له ابن دانشمند كميناً فاعتقلوه وأحضره فسلم عينيه ، عند ذلك أفرج زعماء ملطية عن أخيه مسعودا ونادوا به سلطانا عليها ، ولكنه سرعان ما غادر ملطية تاركا فيها أخويه عربا وطغرل أرسلان وقصد قونية واستقر فيها وجعلها عاصمته .

غارات الفرنجة في سورية

وفي عام ١٤٢١ لليونان (١١١٠ م) انتزع الفرنجة طرابلس من العرب بعد أن حاصروها مدة سبعة أعوام ، وفي العام الثاني زحف طنكريد ملك أنطاكية في جيش عظيم من الافرنج ، وانتزع حصونا كثيرة من العرب ، وبطلش بكل من فيها ، ومن ثم قصد منبج فلم يجد فيها أحدا ، كما قصد بالس فلم يجد بها أحدا فأحرقها ، ورجع الى طرابلس لترعى مواشيه الكلا ثم يعود ثانية ، وبات العرب في سورية بخطر داهم فقد تعذر عليهم مهانة الفرنجة إلا بالمزيد والمزيد من الذهب ، فقام والي حلب رضوان باهداء طنكريد اثنين وثلاثين ألف دينار ، وأربعين قطعه من أنفس الأقمشة ، وعشرين جوادا عربيا أصيلا ، في حين قدم له حاكم مدينة صور سبعة آلاف دينار ، وصاحب حماة علي الكردي ألفي دينار ، وابن منقذ صاحب شيزر أربعة آلاف دينار ، وكذلك صاحب عسقلان أربعة آلاف دينار

أيضا وعقدوا معه هدنة الى موسم الحصاد فقط وعلى شرط أن يقدموا الغلال الى الفرنجة أيضا.

وفي هذا العام اعترض الفرنجة ألاف مؤلفة من التجار العرب القادمين من دمياط وتنيس ، وأسروا سبعين تاجرا منهم وباعوهم بأغلى الأثمان بعد أن سلبوا منهم خمسين حملا من الأقمشة الدمياطية وأربعمائه صندوق من السكر المصري الى غير ذلك من البضائع والامتعة.

وفي هذه الآونة زار بغداد فقيه كبير قدم من حلب فأخذ يبكي ويندب حال عرب بلاد الشام بسبب ظلم الفرنجة ويطشهم بهم ، فاجتمع أهالي بغداد يوم الجمعة في المسجد الكبير وألغوا الصلاة ، وكسروا المحراب ، احتجاجا على الخليفة والسلطان لمسائل تقاعسهما عن محاربة الفرنج. وعندما علم السلطان بذلك أرسل ابنه أبا الفتح مسعودا والأمير موبود على رأس جيش كبير الى الموصل لمقاتلة الفرنجة.

وفي عام ١٤٢٢ لليونان (١٩١١ م) انتزع أتابك سلطان ملطية من الفرنجة بلدة جيحان وحل محلهم فيها ، كما زحف في هذا العام ، وانتزع في طريقه بعض الحصون في شبختان وفتك بمن كان فيها من الفرنجة ثم توجه الى الرها ، فحاصرها مدة طويلة ، ولكن لم يتمكن من دخولها ، فتحول عنها الى تل باشر التي كانت للفرنجة ، فلم يتسن له دخولها ، فتحول عنها الى حلب ، لكن صاحبها رضوان أوصد الأبواب في وجهه ، فواصل زحفه الى دمشق ، فبادر إليه أميرها طغتكين وعرض اخلاصه وولائه في البداية ولكنه خشي أن يغدر به ويحتل المدينة ، فراسل الفرنجة وهادنهم ضاربا عرض الحائط به وبتعهداته.

وفاة الغزالي

وفي هذا العام توفي العلامة العربي الغزالي ووري جثمانه في طرسوس قيليقية ، ولطالما قسرع العرب في مؤلفاته ، لاهتمامه بطهارة الجسد وُغسله متفاضين عن طهارة النفس والقلب ، وكذلك حضهم على الزهد والعفاف موردا لهم الأدلة الكثيرة والبراهين القوية عن قصص الآباء السياح في كتابه الجليل الضخم ، وهذا ما حملني على ذكره.

وفي عام ١٤٢٤ لليونان - ١١١٣ م غادرت الخاتون زوجة السلطان قلعج أرسلان مدينة ملطية الى قلعة بولا . لتتزوج من صاحب هذه القلعة (بك) لما سمعته من ثناء السلطان عليه ، وقالت له : لقد سمعت السلطان يثني دائما عليك ويقول ليس بين الأمراء الأتراك أشجع وأبرع وأحكم منك لذلك أثرت أن أتى اليك لتحميني وتحفظني أنا وأولادي فتزوجها وعلت مكانته لاقترانه بامرأة السلطان.

لكن عندما رجعت الخاتون الى ملطية بادرت فطرت منها الأتابك وانفردت هي وابنها بالقلعة ، ويقال إن أحد الأتراك كان مستوليا على حصن زياد ، فظل بك يضايقه الى أن اشترى سلطان ملطية ذلك الحصن من هذا التركي ، ثم ما لبث أن قدم ابن السلطان محمود سلطان خراسان فاستلبه منه ، وخلال هذه الأثناء أبدى أهالي ملطية عطفًا كثيرا فاشتروا كثيرا من أهالي حصن زياد ممن كانوا مأسورين لدى الأتراك واعتقوهم.

وفاة طنكريد

وفي عام ٥٠٧ هـ - ١٤٢٥ لليونان (١١١٤ م) مات صاحب أنطاكية طنكريد فخلفه عليها رجير ، وفي هذا العام أيضا اشتبك عند

طبرية جيش بقيادة بلدوين وجوسلين يتألف من ألفي فارس وراجل مع جيش بقيادة الامير مودود كان يتألف من سبعة آلاف فارس ، فانهزم الفرنجة شر هزيمة، وقتل منهم ألف وثلاثمئة راجل فهرع صنجيل من طرابلس ، ورجير من أنطاكية لنجدتهم وخيمت جيوش الفرنجة هذه على جبل يشرف على الغرب ومكث الجيشان مدة ستة وعشرين يوما ، دون ان يتعرض أحدهما للآخر، فتوجه الفرنجة الى نهر الاردن، ورحلت جموع العرب ، بعدما أنهكهم الجوع بسبب بعدهم عن مدنها ومراكز امدادهم الى ضواحي دمشق ، وذهب مودود الى المسجد لصلاة الجمعة ، وعندما فرغ من ذلك أمسك بيد طغتكين وأخذ كل منهما يسرح أنظاره في عماراته المدهشة، وبينما هما كذلك هجم رجل اسماعيلي على الامير مودود وباناره بأربع طعنات بسكينة فنقلوه للحال إلى دار طغتكين حيث مات هناك. وفي الحال هجم عبيد مودود على القاتل الاسماعيلي فجعلوه أشلاء مبعثرة ، وخيل لبعضهم أن صاحب حلب رضوان هو الذي دبر عملية اغتيال مودود ، في حين ذهب آخرون الى أن طغتكين نفسه هو الذي يقف وراء هذه العملية ، لأنه كان يخشى أن يطمع مودود بمدينته ، ولهذا أغرى هذا الاسماعيلي الذي كان مسجوناً لديه بسبب جرائمه ووعده بجائزة ثمينة إن خلصه من مودود وأن يخلي سبيله ويكافيه . وخلف مودود في القيادة الامير آق سنقر البرسقي، وسرعان ما توجه آق سنقر هذا على رأس خمسة عشر ألف جندي الى الرها وحاصرها لمدة شهرين .

وفي عام ٥٠٨ هـ (١١١٥) م كان الفرنجة يخرجون من الرها باستمرار ويهاجمون العرب وفي إحدى الغارات ساقوا الى مدينتهم أحد عشر عربيا ، وبتروا أرجلهم وأيديهم وعلقوا جثثهم قبالة الأتراك على السور ، وقد أغضب هذا آق سنقر فقتل خمسين أسيرا من الفرنجة حالاً، ولما أنك الجوع الأتراك تحولوا عن الرها الى سميساط التي كانت ترعى أمرها زوجة كوغ باسيل الأرمني ، كما كانت ترعى أيضا أمر مرعش وكيسوم وربعان ، وقد كانت هذه المرأة تحسن معاملة رعيته بعد أن مات زوجها ، وقد أعنت جيشا

- ٢٢٧٢ -

كبيراً من فرسان ورجالة ، وقد كانت تدفع للفارس اثني عشر ديناراً
ذهباً ، وأما للراجل فقد كانت تدفع ثلاثة دنانير •

أحوال الأرمن

وأما الحكومة الأرمنية ، فلم يكن حالها يختلف عن تلك الصورة ، فقد استعاد اليونان بعد أن تحسنت أحوالهم بعض بلادهم من العرب ، على أن هذا التحسن لم يمكنهم من مقارعة الأتراك ، فقد بقي هؤلاء في بلادهم متخذين الأرمن الذين اعتصموا

بالأماكن الجبلية والجزيرة عملاء لهم ، فقد كان ميخائيل واهنس في جرجر ، وبيت بولا ، وكان كوغ باسيل (اي اللص) في كيسوم ورعبان وبيت حسنة وقلعة الروم ، وأما الأخوان ابنا قسطنطين بن روبين ففي قيليقية ، أما نبتوغ وبيستفور وقسطنطين أبناء سنبل فكانوا في كورة سميساط ، وهؤلاء قوم سريان تبعوا كوغ باسيل ، وباسيل الفتى الذي نشأ في رعاية زوجة كوغ التي كان يرعى شؤونها كرديك اللعين ، الذي كان يعرف بكرهه الشديد للسريان ، لذلك احتل ديرهم المعروف بالدير الأحمر الواقع قرب كيسوم ومنحه لغريغوريوس جاثليق الأرمن ، وجعل خمسة من ديرتهم الكائنة في بيت قنايا بجبل زوبر ، قرى ، وأخلى دير عرنيش من رهبانه ، وأسكن فيه حراساً وجنوداً ، واضطهد هؤلاء الرهبان وسلبهم الفي دينار .

وأما ملك انطاكية تنكرد ، فقد حاصر كيسوم مدة سنتين ثم احتلها ، وأما كرديك السالف الذكر ، فقد عرف بمكره ودهائه ، ولهذا لم يستطع الفرنجة أن يتغلبوا عليه الا بالمكر والخداع فقد زفوا اليه فتاة فرنجية تدعى كلامارى شأنه في ذلك شأن شمشون ، فدمت له السم فمات .

ولما رأت زوجة كوغ باسيل الجيش التركي يبطن ببلدها ويعيث فيها فسادا استنجت بأق سنقر امير الخابور ، فلاطفته وأخذته

بالكلام المعسول واعدة اياه بالمساعدة فبعث اليها سفيرا يدعى سنقر برار الطويل وقبل ان يصل اليها هذا السفير ارتقت عرشها الملكي ، وجعلت جوار من حولها يدخلن بنفيس الحلي والثياب ، وبعد أن دخل مجلسها هذا جلس قبالتها على كرسي فراحت تخدعه بجلو الكلام ولطيفه قائلة : مر جيوشك المعسكرين في الخيام ان يدخلوا المدينة لان جواسيس أخبروني أن الفرنجة يتأهبون للهجوم ، ولكن سنقر لم يأخذ بكلامها ولم يتخل عن غطرسه الى أن هجم سبعمائة فارس من الفرنجة على جنوده الأتراك فلم ينج منهم الا القليل ، وبعد ذلك ربت امرأة كوغ باسيل سنقر الى سيده آق سنقر محملا بآتفس الهبات ، فرجع الى سروج وحاصرها خمسة أيام عاث فيها جنده خلالها فسادا في مزروعات هذه البلدة وغلالها ، ومن ثم سار الى شبكتان حيث أقام هناك وليمة فاخرة حضر اليها الملك مسعود بن السلطان الذي لم يذهب مع موبود ، بل بقي في هذه البلدة ، وبعد ذلك قبض سنقر على اياز بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين وبطش به ، وغزا بلده .

وضربت مـرعرش في ٢٩ تشرين الثاني من عام ١٤٢٦ لليونان (١١١٥) م و ٢٩ من الشهر السادس العربي هزة ارضية جعلتها قاعا صفصفا ودفنت اهلها في ركامها كما تخربت نور عدة في سميساط ، ومات فيها خلق كثير ، ومنهم قسطنطين صاحب جرجر ، كذلك وانهار ثلاثة عشر برجاً من سور الرها ، كما انهار جزء من سور حران ، ومائة دار في بالس ونصف قلعتها وانهارت كنيسة ماريوحنا في كيسوم وكنيسة الاربعين شهيدا فيها ، ولكن هاتين الكنيستين أعيد بناؤها بفضل مساعي اسقفها ديونيسوس .

وفي سنة ٥٠٩ للعـرب أي سنة ١٤٢٧ لليونان (١١١٦ م) هاجم رجير صاحب انطاكية بخمسمائة من الفرسان الامير آق سنقر في منطقة تقع بين حلب والمرة فالتجأ هذا الامير مع أخيه زنكي الى احدى التلال ، ولكن

الفرنجة استمروا في قتلهم لأفراد الجيش التركي ومن معه من التجار وفر آق سنقر وأخوه مع عدد قليل وطاردهم الأفرنج نحو فرسخ ولكنهم لم يمسكوا بهم ، فعادوا وأسروا ثلاثة آلاف تركي ، وحطموا مامعهم من متاع واضرموا في خيامهم النار وأحرقوا جميع الشيوخ والصبيان الصغار غير القارين على العمل ، وساقوا البقية إلى أنطاكية .

وفاة الخليفة المستظهر

وفي عام (١١١٧) م أي سنة ٥١٠ هـ توفي السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه في أصفهان وخلفه ابنه السلطان محمود ، كما توفي في هذا العام الخليفة المستظهر في بغداد ، وخلفه ابنه المسترشد الصغير ، كما مات في شهر آب من هذا العام ملك اليونان الكس الذي اشتهر بالشجاعة والحكمة والأقدام فقد استطاع ان يحافظ على عاصمته ولم يمكن الفرنجة من دخولها وقد اضطرب وضع المملكة بعده ، ذلك أن ابنه يوحنا الذي خلفه في الملك اختلف مع أخيه وأخته وأمه ، فحاولوا أن يغدروا به لكنه كان أقوى منهم ، فنفى أخته وأخيه ، وقص شعر أمه وأودعها في البير ، وفي هذا العام توفي أيضا صاحب غزنة ، وملك مصر ، وبعد ذلك بقليل قتل صاحب أنطاكية رجير ففي هاتين السنتين مات ثلاثة عشر ملكا قبل ان تحصل الهزة الأرضية المدمرة التي ذكرناها من قبل .

أبو منصور المسترشد بالله

فضل - ٥١٢ هـ / ١١١٨ م

دام حكم المسترشد بالله سبع عشرة سنة وثمانية أشهر ، وقام بتكسير خوابي ابيه الكثيرة والممتلئة بالخمر وطرد المغنيين والمغنيات من أرض البلاد في بداية تولية الخلافة ، وأخذ يميل

للتصوف ، فقد سيطر عليه الاضطراب عندما رأى ابيه في حلم ، يقول له : خذني من عندك حتى لاأخذك الي فقام المسترشد وقبره في منطقة أخرى.ثم امر بتفتيش دار الكاتب ابي طاهر بن أحمد فوجد فيها بيعة وأنية المذبح ، فقال له : ماهذا الشيء ؟ فأجابه كانت لي زوجة نصرانية فصنعت كل ذلك دون معرفتي .

حرب الأمير ايلغازي بن أرتق

احتل الأمير ايلغازي بن أرتق حران في عام ٥١٢ هـ (١١١٨) واعتقل قاضيها وشيوخها الثقات ، وكان والي حلب قد دفع الى رجير صاحب انطاكية زهبا كثيرا ، لكنه لم يستطع ان يتوصل الى مهادنته الا أربعة اشهر فقط ريثما يحصد الفلاحون أراضيهم وجمع القمح عن البيادر ، لأن رجير سرعان ماعاد وحاصر حلب فاستنجد الحلبيون بالأمير ايلغازي بن أرتق أمير ماردين فلبى نداءهم بجيش قوامه سبعة آلاف تركي ، وشرع يهاجم الفرنج حتى كسرهم وقتل اميرهم رجير ، فانهزم الأفرنج الى انطاكية ، لكن الأتراك لحقوا بهم واحتلوا ضواحي انطاكية ، وقتلوا كثيرا من الرهبان في الجبل الأسود ، ولما علم بذلك ملك القدس بلدوين الثاني لحق بالأتراك ، كما لهم ثم فاجأهم وقتل منهم الكثير ، وعاد ادراجه يريد ايلغازي حيث استولى على كل ما غنمه وسلبه ، وأعادته الى انطاكية وقد ذكر البطريق ميخائيل السرياني أن غازي بن دانشمند هو الذي كسر الأفرنج ، وقتل رجير ولعل تشابه الاسمين هو الذي أوقعه في هذا الخطأ .

وقعت في سنة ٥١٢ للعرب احداثا كثيرة فقد احتل أمير ملطية جيحان وابلاستين وقلعة قلبية ، وكذلك غزا الفرنج في شهر شباط بلدة ملطية وغزا الأتراك بلد جرجر ، كذلك غزا أمير ملطية بلدة قماح ، فتوجه صاحبها الى طرابزون واستنجد باليونان ، فأرسلوا

معه قائدا واسمه جيراس ، لكنه سرعان ما اعتقل بعد ما هاجمه امير ملطية وبلك ، فدفع لهما ثلاثين ألف دينار وعاد الى بلاده .
واستولى يوحنا ملك القسطنطينية على ثلاثة حصون من الترك وغزا ايلغازي ضواحي أنطاكية وأشعل النار في غلال بلدة الرها ، وتولى الحكم ابن طفتكين صاحب دمشق بعد موت أبيه إلا أنه سرعان ما بطش به التتاش التركي وتولى مكانه .

وفي عام ٥١٥ هـ (١١٢١ م) انقض بون موافقة الأمير زنكي الملك مسعود في الموصل على أخيه السلطان محمود فحشد جيشا وهاجم أخاه ، إلا أن السلطان تمكن من القبض عليه وكبله بالقيود وولى بدلا عنه بلاد الموصل والجزيرة وسنجان ونصيبين الأمير البرسقي .

وفي تلك الايام أرسل ملك القسطنطينية اليوناني إلى ايلغازي بن ارتق قائلا : إن أعداد كبيرة من الفرنج توجهوا إلى سورية عبر البحر ، وعلينا أن نستعد لمقاتلتهم وإذا احتجت فإنني أستطيع إرسال ثلاثين ألف مقاتل نجدة لك ، فسارع ايلغازي وسد الموانئ وسدد إلى الفرنجة ضربات شديدة فقتل معظمهم وهرب من تبقى إلى فروجية ، وكان ذلك مؤامرة من اليونان المراوغين .

وفي أطراف حصن زياد وبولا وملطية كان أرمن جرجر يغيرون وينهبون ، فبعث بك الأمير التركي إلى ميخائيل الأرمني صاحب جرجر طالبا بأن يوقف أتباعه عن السلب ، مقابل تقديم كل عام ألف حمل حنطة وثلاث قرى من قراه ، فأقسم له ميخائيل صاحب جرجر على الوفاء غير مرة لكنه كان يحث بقسمه دائما وبقي أتباعه يسرقون ويحرقون القرى في هنزيط، مما اضطر بك للعبور إلى جوباس في شهر شباط على جليد الفرات، فقد كانت الثلوج متراكمة في ذلك الشتاء القاسي، وعلى الرغم من ذلك اجتاز جبل قريونا الشاهق فقد أرسل ألفا من الخيول شقت الثلوج وسارت وراءها الجيوش التركية .

ووصلت إلى دير برصوم خلال يوم واحد وقد شقت قوات ملك في جرجر جبل الجدار خلال الليل وهجموا على ملطيه في يوم الاثنين أول كانون الثاني ١٤٣٢ لليونان (١١٢١ م) وأسروا السكان واستولوا على الحيوانات، لكن ملك عاد فأشفق على الفلاحين المسيحيين فأعاد لهم أموالهم كلها ، ونقلهم إلى هنزيط وأصدر لهم أمرا أن لايعودوا ثانية إلى جرجر ، وأنه إذا وجدهم ثانية في تلك المناطق فإن عقابهم سيكون شديدا .

وفي عام ١٤٣٣ لليونان (١١٢٢ م) أرسلت إلى بلدة الكرج جيوش تركية ضخمة من قبل السلطان محمود فأغلقت الثغور وأهلكت الكثير ، ثم غزا بلده جوباس الفرنجي. وفي هذا العام توفي الملك ايلغازي بن أرتق. وتزوج ابنة جوسلين رجير صاحب أنطاكية بعد وفاة زوجته ، وأراد أن يصطحبها معه إلى الرها ، لكن ملك نصب كميناً لها وقبضوا عليها وأخذوها إلى بولا. كذلك تنازل عن جرجر للملك بغدوين ميخائيل الأرمني بعدما تغلب عليه الأتراك واستولى على مكان آخر .

وفي العام ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) أتى إلى بغداد قاضي الموصل ابن الشهرزوري ودفع للخليفة خمسة آلاف دينار واحتل غربي بجلة كلها من حدود الموصل حتى البصرة .

« أسر ملك بيت المقدس بلدوين »

بينما كان الافرنج مخيمين عند شواطئ نهز سبنجة في عام ١٤٣٤ لليونان (١١٢٣ م) فاجأهم الأمير التركي ملك وتمكن من القبض على الملك بلدوين وكان ذلك يوم الأربعاء من أسبوع البياض ، واستعد القمصان جوسلين وغالران كل الصيف لمحاربة الأتراك وفي أيلول تلاقى الجيشان ، وأثناء الحرب تمكن ملك من الانتصار على الفرنج. وكان ذلك ليلة عيد الصليب واستطاع أن يأسر القمصان جوسلين وغالران حيث ألقى بهما في بئر مهجور مع الملك

بقلعة خرتبرت ، وهي حصن زياد ولكن العمال الأرمن تمكنوا من دخول القلعة حينما تأكّدوا بأنه لا يوجد هناك إلا عدد قليل من الأتراك ، فقد تجمهروا أمام الباب محتجين على الأجرة التي يأخذونها ثم هجموا على الحراس وأخذوا السيوف وقتلوا الأتراك الذين في القلعة ، وانتشلوا الملك بلدوين وجوسلين وغالران من البئر ، وقضوا على العرب واحتلوا القلعة ، ثم احتال جوسلين فغادر القلعة ليلا متنكرا بصحبة رجل أرمني ليأتي بجيش ويحتل القلعة لينقذ الملك بلدوين ، غير أنه ماكاد يخرج جوسلين حتى وصل بك ف ضرب القلعة بالمنجنقات واحتلها ، وقتل سبعين من الأرمن والفرنج ، وقاد بلدوين وابن أخته غالران إلى منبج وحاصرها إلا أن سهما أصابه من أعلى السور فقتله فهربت جيوشه إلى حلب وتولى ابن عمه تمرتاش بعده فباع الأسيرين بمائة ألف دينار ، وعاد بلدوين إلى بيت المقدس ، بعد ذلك تولى حصن زياد سليمان نسيب بك ، وتولى أميرملطية مسارا وجرجر ، وفي تلك الأيام ظهر في السماء شهاب امتد من الجنوب إلى الشمال ، وكان عرضه بعرض رقبة الحصان وقد ظل في السماء لمدة شهرين .

وقائع

١٤٣٥ - ١٤٤٦ يونانية / ١١٢٤ - ١١٣٥ م

هجم الأمير غازي بن دانشمند صاحب سبسطية على ملطية في يوم الجمعة ١٣ حزيران ١٤٣٥ لليونان (١١٢٤ م) فتمكن من اجتياح ضواحيها كلها ، ثم حاصرها لمدة شهر لكنه لم يستطع أخذها فترك حولها ، في قرية سامان ابنه محمدا مع جيش كبير ، وأمره بمداومة حصارها وأن لا يدع أحدا يدخل إليها أو يخرج منها ، وفي هذا الوقت كان أميرها المدعو عرب يغير على بلد دانشمند ويسرق وينهب .

وأدى حصار ملطية إلى تفاقم الجوع بين أهلها حتى وصل سعر قفيز الحنطة ، أي حمل الجحش إلى ستة وثلاثين ديناراً ذهباً وانتهى القوت من المدينة فأخذ أهل ملطية يسلقون الجلود اللينة والأحذية وأغلفة الكتب ويأكلونها ، كذلك انقضت من المدينة الحمير ، والقطط والكلاب وهكذا يكون قد نزل بملطية ثلاث نوازل اليمية نتيجة الحصار الذي وقع عليها . الجوع الذي يفتك بأهلها والسيوف الذي يتسلط على رقبة كل من يخرج منها ، وايزابيل الثانية ، أم السلطان التي كانت قد أتت من الموصل لتسلب الناس مامعهم من ذهب ومقتنيات وتمضي ، لكن الرب لم يطل محنة المسيحيين والامهم ، فارتحلت تلك الملعونة مع ابنها وكان ذلك في ليلة الأربعاء العاشر من كانون الأول ١٤٣٦ لليونان (١١٢٥ م) ، وفي ذلك اليوم تساقطت نجوم من السماء ، وعندما دخل الأمير غازي ملطية ارتاع لما رأى الناس كأنهم خارجين من القبور لكثرة ما أصابهم من الجوع وأشفق عليهم ، ومنحهم الحبوب والحنطة ليزرعوها ، كذلك استحضر لهم البقر والأغنام والأثيران ليعتاشوا منها وانتعشت أحوال السكان وعادت فازدهرت المدينة.

ذكر البطريرك ميخائيل السرياني : أن الخليفة المستظهر توفي هذا العام وخلفه المسترشد ابنه ، ولعله أخطأ في روايته بسبب الاختلاف بين السنين العربية القمرية والسنين اليونانية الشمية .

في سنة ١٤٣٧ يونانية (١١٢٦ م) قتل الأفرنج صاحب حماة في كفرطاب ، واحتلوا جبله وضيقوا الخناق على صور بوساطة مراكب الفرنج القادمين من مدينة البندقية ، أضف إلى ذلك فقد أتى ملك بيت المقدس لمساننتهم فاستطاعوا أن يحتلوا صور بعد معارك طاحنة .

وفي هذا الوقت حشد الملك عرب جيشا وهاجم أخاه مسعود سلطان قونية لتحالفه مع ابن داذشمند فهرب السلطان مسعود إلى ملك اليونان يوحنا في القسطنطينية ، فرحب به يوحنا وزوده بجيش كبير ، ومال وذهب وقصد غازي ، ثم سار الجيشان إلى عرب ، وحدثت معركة انهزم فيها عرب وهرب إلى بلد قورس الأرمني أمير قيليقية ، وفي عام ١٤٣٧ لليونان (١١٢٦ م) هجم على آق سنقر البرسقي أمير الموصل عشرة من الاسماعيلية وطعنوه وهو يصلي في مسجد الموصل القديم لكنه نهض وتمكن من قتل ثلاثة منهم قبل أن يموت ، وخلفه ابنه عز الدين مسعود على الموصل وجزيرة قردو والجزيرة وحلب وحماة وغيرها ودامت ولايته سنة واحدة ثم توفي ، فخلفه أخوه الصغير ، وكان يساعده الأمير جاولي ، وكان من غلمان أبيه البرسقي ، وبعد ذلك أرسل جاولي قاضي الموصل أبا الحسن علي بن الشهرزوري وصلاح الدين الياغسياني بمثابة رسولين إلى السلطان في بغداد ليؤيد ابن البرسقي الصغير في الولاية، غير أنهما قالوا للسلطان : إن الموصل تحتاج إلى رجل قوي يستطيع مقارعة الأفرنج الذين هزموا العرب جميعا.

وقصدا بالقول : أتاك زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر ، الذي كان شحنه في واسط وبغداد فوافق السلطان وحمله فرمانا بذلك وأرسله إلى تلك المدينة ، وحين مروره في بيت وازيق احتلها ، وعند بلوغه الموصل ولي صلاح الدين الياغسياني أمر حراسة القلعة .

وأرسل جاولي إلى الرحبة، وكلف ابن شهرزوري قاضيا على الموصل وماتلاها يرثه في القضاء نسله من بعده على طول الزمن . وتولى زنكي كذلك الجزيرة واربيل وسنجار والرحبة وحلب وحماة وحمص ، وانهمز عرب ولحق به غازي واستولى على خيامه ، ثم انطلق إلى قومانة وأنقرة وحاصرها شهيدا في عام ١٤٣٨ يونانية (١١٢٧ م) واحتلتها واستطاع أن ينقذ محمد ابنه الذي كان قد حبسه عرب هناك . ثم حشد عرب جيشا للمرة الثانية وزحف يريد غازي فانكسر وفر هاربا إلى بلاد اليونان ، ثم ضاعت أخباره ولم نعد نسمع عنه شيئا . ثم أتى من رومية بوهموند بن بوهموند الفرنجي إلى أنطاكية عام ١٤٣٨ يونانية وتولى مقاليد الأمور فيها، ثم نشب خلاف بين الفرنج فغزا جوسلين ضواحي أنطاكية مما سبب غضب بطريركهم عليه ، وأغلق الكنائس وأمر بإيقاف الصلوات وقرع النواقيس حتى يرد جوسلين جميع الغنائم .

وفي عام ١٤٣٩ لليونان (١١٢٨ م) صمم الحلبيون أن يدفعوا لجوسلين كل عام إثني عشر ألف دينار شرط أن لا يضيق عليهم ، واتفق بعض أتراك حلب مع فريق من طباطخي الفرنج بأن يعطوهم ذهبا مقابل أن يسقوا جوسلين وستة من فرسانه سما أدى إلى القضاء على حياة الستة إلا جوسلين فقد تمكن الأطباء من معالجاته حتى شفي وبعدها قضى على النين سقوه السم وقتك بعائلاتهم وأولادهم جميعا .

في تلك السنة غزا طغرل أرسلان أطراراف ملطية الخارجية وكانت قد انتزعت من يده . لكن بعد ذلك عاد أدرجه وضاعت أخباره ولم نعد نسمع عنه شيئا ، ثم غزا جوسلين التركمان والأكراد عام ١٤٤٠ لليونان ووصل إلى آمد ، وفي السنة نفسها علم زنكي أن السلطان يريد أن ينصب بيبس زعيم المعديين أميرا عوضا عنه في الموصل، فذهب زنكي إلى بغداد وأخذ يتوود إلى السلطان و قدم له مائة ألف دينار وكذلك قدم للخليفة هدايا ثمينة جدا ليبقيه في مكانه ، وكانت قد جرت بين الخليفة وبيبس خلافات

كثيرة ووقائع كبيرة ، فقد انضم دبببب إلى السلطان منذ البداية ، وأخذ بازدياء الخليفة فتسرع يركب إلى بغداد مطمئنا محتقرا الخليفة ، كذلك ولما مرض السلطان مزق دبببب ابنه الصغبر وانهم ، ثم توجه وغزا الكوفة والبصرة والحلة ، وجمع ذهبا كثيرا وضم إليه عشرة آلاف فارس ، ولذلك كون جيشا خاصا به ، وهناك أمثلة كثيرة على مكر دبببب لايسع هذا المؤلف السرد فيها ، وقيل إنه خلال عراك جرى بين الخليفة ودبببب انكسر دبببب مع أصحابه إلا أنه استطاع أن ينجو على حصانه وعبر الفرات، فرأته عجوز وقالت له : هل حضرت يا دبببب ؟ أعني ياتاعس الحظ ، وما كان منه إلا أن تبسم ، ولم يصرخ في وجهها وقال لها : إن التاعس الحظ هو من يتغيب ولا يحضر .

وفي هذه السنة اندلعت حرب طاحنة بين الفرنج والاسماعيلية فاجتاح عشرة آلاف من الفرنج الحصون الكثيرة التي كانت بيد الاسماعيلية في فينيقية .

وأصبحت قلوب عرب سورية مليئة بالرعب من الفرنج الذين سيطروا على جميع البلاد من ماردين وشبكتان حتى عريش مصر. واستخدموا سياسته التضييق على دمشق وأرغموا الأهالي على دفع جزية في السنة قدرها عشرين ألف دينار ، ثم أحصوا كل ما في دمشق من العبيد النصارى ونقلوا كل من رفض الإقامة مع العرب دون أن يعطوا أثمانهم لمواليهم ، وكانوا يأخذون نصف الغلات من حلب حتى من الرحي التي على باب الجنان ، ووصلت جيوش الفرنج الى نصيبين ورأس العين، وصارت حياة أهالي الرقة وحران شاقة للغاية، وأصبح من الصعب على العرب السفر من المشرق الى دمشق الا عن طريق البادية .

وفي عام ١٤٤١ لليونان (١١٣٠ م) تولى لاون أمر قيليقية بعد وفاة أخوه تورس ، وزاحمه بوهموند صاحب انطاكية ، وفي هذه

السنة عينها وهي ٥٢٤ هـ ، في الثامن من آذار حدث زلزال قوي وعنيف في بغداد فهدم كثيرا من المساكن والبيوت كذلك غطت الموصل سحابة كثيفة ، وهطل مطر غزير ، ثم بدأت تتساقط جمرات نارية هائلة من السماء ، فأحرقت وخربت بيوتا كثيرة مع أثاثها ومحتوياتها .

وفي هذا العام توجه الزعيم اليوناني قسيانوس يريد غازي بن دازشمند فسلمه كثيرا من الحصون في بلاد البنطس ، وتولى كيبوكية بأجمعها ، ثم حشد غازي جيوشا كبيرة وزحف لغزو قيليقية ، وصدق أن دخلها بوهيموند أمير انطاكية من ناحية أخرى ، دون أن يعلم أحدهما بالآخر، وأمام هذا حدثت معركة طاحنة بين الأتراك والأفرنج ، بينما ظل لاون الأرمني قابعا ينتظر نتيجة صراع الخصمين ، وكانت نتيجة المعركة أن انتصر الأتراك وقتلوا بوهيموند ، دون أن يعرفوا أنه الملك ، وللحال تحرك لاون فسد الثغور في وجه الأتراك ، وهاجمهم وقتل كثيرا منهم .

وفي عام ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م) هاجم صاحب دمشق دببيس المعدي واسره ، وأرسله الى زنكي أمير الموصل ، فقام زنكي بالمقابل بإرسال ابن دببيس الذي كان أسيرا لديه .

وفي عام ١٤٤٢ لليونان (١١٣١ م) قدم ملك بيت المقدس الى أنطاكية ، وكذلك اتاها جوسلين من الرها ، فما كان من الأنطاكيين الا ان اغلقوا الأبواب في وجهها حتى أبرما قسما أن تبقى مدينة أنطاكية لابنة بوهيموند حتى تكبر وتتزوج فيصبح زوجها خلفا لوالدها .

ثم استطاع غازي بن دازشمند أن يدخل قيليقية ويستولي على بعض الحصون ، عنئذ أقسم له لاون الأرمني أن يمنع لصوصه من الاغارة والسطو على بلده ، وكذلك أن يؤدي له الجزية كل سنة لكنه أخلف في قسمه ثانية ، ولم يدفع شيئا ، ثم توجه اسحق أخو ملك

الجميع على محاربة سنجر ، فتوجه سنجر الى همذان واحتلها
ونادى باسم طغرل بن محمود .

وفي عام ٥٢٦ هـ (١١٣١ م) توجه كذلك مسعود قائد جيوش
ال خليفة الى همذان مطاردا سنجر وبعث الى الخليفة ليشارك في
المعركة بنفسه ، وما أن استعد الخليفة للرحيل حتى وصل خبر أن
زنكي ودييس المعدي قد اتفقا أن يذهبا الى بغداد فرجع الخليفة
وتصدى لهما في ألفي رجل ، وهزمهما ففر زنكي الى تكريت ودييس
الى الفرات ، وما كان من زنكي الا أن بعث بالقاضي ابن
الشهرزوري الى الخليفة طالبا منه المغفرة وينتظر أمره ليذهب اليه
ويتولى بغداد قبل سنجر ، فرد عليه الخليفة قائلا : إن سنجر ليس
له سلطنة عندنا ، واذا أراد زنكي ان يصلحنا فعليه ان يسلمنا
دييس ويبقى هو في الموصل ، والا فنحن زاحفون اليه .

وفي بداية سنة ٥٢٧ هـ (١١٣٣ م) نزل السلطان مسعود الى
بغداد فنودي باسمه واسم سنجر واسم داود معا سلاطين بعد
ال خليفة وابنه ، ثم زحف الخليفة المسترشد وحاصر الموصل ثمانين
يوما ، فأبى عليه فبلغه خبر بأن السلطان مسعود قادم اليه ، فترك
الموصل وفر هاربا الى بغداد ، واحتل جوسلين الثاني قلعة شبكتان
وهدمها الى الأرض ، وتوجه يوحنا ملك اليونان واحتل حصن
قسطمونة منتزعا اياه من الأتراك صلحا ، ثم أنه احتل حصنين
أخرين عنوة ، كذلك ملك بيت المقدس الفرنجي قلعة القصير
قرب انطاكية بالقوة ، وزحف الى عم (٤) ، فاحتشد الأتراك هناك
بالآلاف كالجراد ليقاتلوا الفرنج ، وفي البداية انهزم الفرنج لكنهم
استرجوا الأتراك الى البقاع وهناك التقى الجيشان وحدثت معركة
تلقى فيها الأتراك ضربة قاضية حتى المساء ، وكان هذا
عام ١٤٤٥ لليونان (١١٣٤ م) ، وفي تلك السنة زحف على الرها
الجراد فاستجد المسيحيون بالصفى برصوم (٥) فأحضروا صندوق
رفاته ، فارتحل الجراد عنهم ولم يؤذ البلد مما أدى الى سخط الروم
فعرضوا بيبوس مطران الفرنج أن يأمر بفتح صندوق رفاتة ، لكن

الرهبان رفضوا طلب مطران الفرنج أول الأمر، إلا أنهم رضخوا في النهاية واضطروا أن يفتحوه في بيعة الفرنج لأن الفرنج سخروا منهم وقالوا: إن هذا الصندوق فارغ ولا يحتوي شيئا ، وعند فتحه حدثت تبدلات في الجو فتلبت السماء بغيوم سوداء ، وسقط برد قتال ملأ الشوارع فتصاعدت الاصوات من كل جهة تطلب النجدة وتقول ارحمنا يا صفي الله ، امنا اليونان فقتلهم انهزموا، وبعد أن انقطع البرد اجتمع الأهالي ودامت صلواتهم ثلاثة أيام ، وحين شاهد العرب الحرائيون هذه الأعجوبة طالبوا بنقل الرفاة ليكون في عهدتهم ، لكن الفرنج رفضوا وروده الى الدير بكل احترام وتقدير ، ثم نقله الملطيون اليهم بالصلوات والتراتيل ، أما الجراد فلم يستطع أن يأكل الزرع ، وكأن يدا قد لجمت فمه ، وفي ٢٣ ايلول سقطت صاعقه من السماء فاحرقت سبعة ثيران وولدا ، كذلك احرقت صبيا آخر في سمنندو ، وحدثت زلزلة عنيفة في ملطيه وسقط ثلج أحمر. وبعدها في عام ١٤٤٦ لليونان زفت بنت بوهيموند صاحب أنطاكية الى ريموند دي فوترس الذي قدم من أنطاكية وتولى أمارتها. وفي السنة نفسها توفي بلدوين الثاني ملك بيت المقدس ، وزفت ابنته الى فلك ، فخلفه في مكانه ، وأيضا أرسل في هذا العام زنكي صاحب الموصل ابنه الى بغداد وأعطاه مفاتيح المدينة وبعض نسائه كودائع ، وأقسم أن يكون طائعا ، فنال بذلك الرضى ، وبعدها اصطلح الخليفة والسلطان سنجر ، فبعث الخليفة له تاجا وطوقا وحصانا بنعلين ذهبيين، فما كان من سنجر إلا أن نهض وقبل حوافر الحصان ، وقدم الطاعة للخليفة وفي السنة عينها خرج ابن جبارا جاثليق النساطرة (١١٣٣ - ١١٣٥ م) الى الحديقة اثناء الليل فوطيء على حيه لدغته فمات ، وقيل أنه مات رعبا وأن الحية لم تلدغه ، وفي السنة ذاتها أطلق الخليفة على الأمير غازي بن دانشمند اسم الملك غازي حيث أرسل له طوقا ذهبيا للدلالة على العبودية ، وصولجانا وأربعة بنود سوداء وطبولا تسدق أمامه ، وحين وصول السفراء كان الملك غازي مريضا وما لبث أن توفي فمسينوا ابنه محمدا خليفة له ورجعوا.

الأحداث التي جرت في عهد محمد بن الأمير غازي ابن دأشمند

وفي عهد محمد هذا قامت أحداث كثيرة حيث أعاد بناء قيساريه كيبوكيه التي كانت قد تهدمت وجعلها عاصمة له ، ثم توجه الى ملطيه حيث كان خائفا من اتفاق الزعماء مع أخيه بياجان فحمل معه الهدايا لكنه ما لبث أن غدر بأخيه وقتله. كذلك غزا أخوه الثاني بولت بلدة ملطيه ، وحدث في الشهر السابع أن ألغى الخليفة المسترشد الخطبة باسم السلطان مسعود ، وأرسل جيشا يتألف من سبعة آلاف جندي لمقاتلته ، وكان قد بلغه أن جيش السلطان يتألف من ألف وخمسمائة عسكري فقط ، لكن ما لبث أن أصبح جيش الخليفة خمسة آلاف عسكري ، وغدا جيش السلطان خمسة عشر ألفا ، فانهزم الخليفة واعتقل هو ذاته ونهب ما كان معه من أعتدة ومتاع وثروات ، لقد نهب منه سبعون حمل بغل زهبا وفضه ، وخمسة آلاف حمل جمل وأربعمائه حمل بغل أقمشة وثيابا مفصله ومخاطه وغير ذلك، وأمر بعد ذلك مسعود المنادي أن ينادي في صفوف الجيش بأن الأموال والأمتعة لكم والدماء لي ، وأن من قتل رجلا قتلت عوضا عنه ولذلك لم يقتل سوى خمسة اشخاص فقط ، كذلك نادى المنادي أن من يبقى هنا من حزب الخليفة يقتل ، فما كان من البغداديين إلا أن فروا وهربوا عراة حفاة هنا وهناك ، وأرغم السلطان مسعود الخليفة بأن يكتب كتابا يقول فيه للبغداديين بأنه في أمان وأنه سوف يعود اليهم قريبا ، لكن البغداديين لم يصدقوا وأيقنوا أن الخليفة كتب هذا خوفا ، فما كان منهم إلا أن ثاروا وأثناء ذلك قتل نحو مائه وخمسين من العامة، ثم هدأت فورة غضبهم تلقائيا .

وفي هذه الأحداث أخذت الزلازل تهز أرض بغداد تكرارا وكل يوم خمس أو ست مرات ، فأرسل السلطان سنجر الى السلطان مسعود

سفيرا يحمل رسالتين الأولى سريه مضمونها كان سبا وشتما لأنه لم يقتل الخليفة أثناء المعركة ، أما الثانية مفتوحة وتقول اذا رأيت هذه السطور يا بني غياث الدنيا والدين مسعود فاذهب الى أمير المؤمنين وقبل الأرض أمامه ، وأطلب منه المغفرة على ذنبك ، وأنا لا يسعني الصبر على ما تراه عيني مما يحدثه الله سبحانه وتعالى بسبب ذلك من رياح وصواعق وبروق وغير ذلك ، وقد حزن العرب قاطبه وأغلقت المساجد وألغيت الصلوات في بلاد العجم وشنعار ، فأرجع الخليفة الى ما كان عليه والى مكانه باكرام دون تعلل ، وسلمه دبيس ليفعل به ما يشاء لأنه سبب كل تلك الفتن ، ولما رأى مسعود ذلك أصدر أمرا فنصبوا خياما كبرى ، وأقاموا الخليفة هناك وحملوا أمامه الأغطية نحو نصف فرسخ ثم جاء به مسعود الى خيمته الملكية الكبرى ، وطلب المغفرة منه على ذنبه ، واعطاه دبيس مربوطة ، وقدم معه سيف وكفن قائلا إن هذا سبب كل المصائب فافعل به ما شئت عقابا على جرائمه ، لكن الخليفة أدرك أن هذه الكلمات نابعة من الفم لا من القلب ، فعفا عن دبيس ، فأمر السلطان مسعود الخليفة بأن يذهب إلى بغداد ، لكن الخليفة رفض وقال له : لن أذهب إن لم تأت معي ، فقال مسعود : سأرسل معك أمراء يحيطون بك فتدخل بكل احترام واجلال الى دارك ، لكن الخليفة خاف أن يضعوا له كمينا في الطريق ويتخلصوا منه إذ لايسعهم أن يصنعوا هذا علانية بإمام دينهم ، وقدر مسعود أن يتوجه الى انربيجان ليقاتل ابن اخيه داود ، وذهب معه الخليفة ، لكن سنجر بعث وفودا الى مسعود الى مراغه وهو عند بابها ، وبعث له بأن يرد الخليفة الى بغداد بسرعة ، وكان من جملة هذه الوفود سبعة عشر من الاسماعيلية ، وفي يوم الخميس عام ٥٢٩ هـ (١٣٣٤ م) هاجم الاسماعيلية خيمة الخليفة ، وكان يقرأ في القرآن وأجهزوا عليه وعلى ثلاثة من خدمه بالسكاكين ، فما كان من مسعود إلا أن أحاط بالخيام وفتك بالقتله ، وقيل في هذه الواقعة إن سنجر لم يكن لديه علم بالاسماعيلية ، لكن الحقيقة هو الذي أرسلهم دون علم مسعود.

الخليفة الراشد

كانت مدة حكمه سنة فقط ، فبعد مقتل أبيه الخليفة المسترشد ، أمر السلطان سنجر قضاة بغداد وأقطابها أن يبايعوه بالخلافه مكان أبيه ، فأنصاعوا للأمر.

مقتل دبيس بن صدقة

في هذا الوقت تأمر دبيس بن صدقة وغدر بالسلطان مسعود ، حيث كتب الى زكي قائلاً : انني أتلف لآتي اليك وأحشد جيشاً ضخماً من المعديين عدد بعدد رمال شاطئ البحر ، ثم نتحد سوياً ونعمل ضد مسعود عملاً تذكره الأجيال القادمة ، وقد شاعت الأقدار أن يعتقل الرسول حامل الرسالة ، فوعدت الرسالة بيد مسعود نون أن يعلم دبيس بذلك.

ولما اجتمع الأقطاب مع مسعود ، سقاهم كعابته ماء السكر ، ثم أشار على دبيس أن يبقى بعد زهاب الجماعه قائلاً : هناك موضوع خاص وسري أريد أن نتحدث فيه ، فذهب مسعود الى الخيمة الداخلية وأعطى الرسالة الى عبد أرمني يحمل سيفاً قائلاً : أعطها لدبيس ، وعندما يبدأ بقراءتها اضربه من ورائه وأقطع رأسه ، فلما ذهب العبد شاهد دبيس يضرب الأرض باصبعه ويقول : إن الموت خير من حياة بهذه الحالة من الأضطراب ، فأعطاه الرسالة ، وعندما بدأ يقرأها ، فاجأه العبد بضربة فلقت رأسه عن هامته ، وهكذا انتهت حياة هذا المراوغ ، وقد تم قتله بعد مضي خمسة وثلاثين يوماً على قتل خصمه الخليفة المسترشد.

نهاية ميخائيل الأرمني

في السنة ١٤٤٧ يونانية (١١٣٦ م) و ٥٣٠ هـ نكت ميخائيل الأرمني بوعده للفرنج ، فقد كان قد باعهم منذ أيام بك قلعة جرجر ، لكنه عاد الآن وشرع يغزو مناطقهم ، فأبركه الأتراك يوما على ساحل الفرات عند قرية كور زيزونا ، فحاصروه من جميع الجهات ، ولم يستطع الخلاص فألقى بنفسه في النهر ، وكان يلبس درعا حديديا ، فغرق في الماء ، لكنه ما لبث أن عاد فطفا وهرب الى الضفة الثانية ، واستطاع أن يفلت من الأتراك ، وقيل أنه لم يلق من يده المجن أثناء ذلك ، بعد هذا تخلى لجوسلين الثاني عن مدينة جرجر ، وأخذ عوضا عنها مكانا يسمى سفرس ، ثم قام باسيل أخو جاثليق الأرمن فاشتراها من جوسلين ، لكن ميخائيل عاد فحشد عسكره وزحف إلى كيسوم ونهب ضواحيها ، فنصب الفرنج له كميناً فأسروه وقتلوه ، وبعد ذلك توجه باسيل إلى قيليقية فتزوج أخت لاون ، ثم جمع عددا من الأرمن وأسرع يتحرش بالفرنج في منطقة فرزمان ، لكنه لم يستطع أن يحقق شيئا ، بل بالعكس قتل العديد من جماعته .

وفي كانون الثاني من هذه السنة اجتاحت أمم موجة من البرد القارس فالتجأت إلى المدن الطيور الجبلية كالحجل وغيره ، وكذلك حيوانات البراري كالغزال ، فأصدر الحاكم أمرا أن لا يتعرض لها أحد من الأهالي ، فأخذوا يقدمون لها الطعام حتى حلول شهر نيسان ، ثم أطلقوها ، وقد قيل إن هذه الطيور والحيوانات شرعت منذ بداية الخريف تلتجئ إلى الكهوف والمغاور وكأنها شعرت مسبقا بقدم البرد مما يدل أن الله تعالى قد علم الحيوانات التنبؤ بالحوادث الطبيعية قبل وقوعها .

نهاية الخليفة الراشد بالله

وفي هذا العام أرسل السلطان مسعود إلى الخليفة الراشد رسولا يطالبه بمبلغ قدره ثلاثمائة ألف دينار كان قد سلف ووعده بها والده المسترشد يوم كان عنده ، وثلاثمائة ألف دينار غيرها يجب أن يجيبها من البغداديين مساعدة له ويضم إليها حقوق الخلافة الجديدة كالعادة .

فتنادى الخليفة للاجتماع بمستشاريه وبعد تداول طويل قرروا أن يجهز الخليفة جيشا ويتوجه لمحاربة مسعود ، ففتح الخليفة خزائنه واستخدم ما فيها من الذهب وشرع في تجهيز الجيش ، ثم استدعى الرسول وعنفه قائلاً : كان وعد أبي بالذهب لأجل نجاته ، لكنكم قتلتموه ، وأما الآن فيتوجب علي الانتقام ، ومن الآن فصاعدا ليس لكم عندي إلا السيف ، فرجع الرسول مسرعا ، وبدأ الخليفة في بناء الأسوار ، وترميم الأبراج ، وعندما انتشر الخبر بدأت النجادات تأتي إلى الخليفة ، فأقبل زكي أمير الموصل ، وداود ابن أخي السلطان مسعود .

وحاول الخليفة أن يلغي الخطبة باسم السلطان مسعود وأن يخطب باسم داود ، لكن زكي رفض ذلك وقال : لاتحشرشوا بمسعود ، بل قولوا لداود أن يذهب ويستشر عمه فإن وافق خطبنا باسمه ، لكن الخليفة رفض اقتراح زكي ، وألغى الخطبة باسم مسعود ، وخطب باسم داود سلطانا ، فبادره مسعود بالقول : لقد أصبحنا بغنى عنك وقد أقمنا خليفة موافقا لنا من سلالة علي ، فأبحث لك عن مكان آخر وارحل إلى حيث شئت ، فأرسل الخليفة إلى بهروز أمير تكريت قائلاً إنني قادم إليك لاتحصن في قلعتك ، فأجابه بهروز : أنا عبد مسعود ولا أستطيع أن أقول له لا إذا طلبك مني ، حينئذ لم يعد أمام الخليفة سوى محاربة مسعود ، فنصب

خيامه عند مشارف بغداد ، وأبقى عنده زنكي وبقية الاقطاب ، لكن سرعان ما ورد خبر يقول : إن مسعود قائم في جيوش كثيرة ، عندئذ قال زنكي لمستشاري الخليفة وأقطابه : هذا ماجرى بسبب مشورتكم فلم يستفد لاهو ولا أنتم شيئا ، قولوا الآن هل أنتم مستعدون لمحاربة مسعود ؟ أريد أن أعرف وإلا فليعد كل منا من حيث أتى ، ولنكف عن هذه الحرب ، وليكتف كل منا بما لديه ، وعندئذ شرع كل واحد يحملق في وجه زميله ، فتحقق زنكي من خداعهم وأخبر الخليفة بذلك ، ثم تركهم زنكي وعاد إلى الموصل ، فنهضوا جميعا وبخلوا المدينة ، ونصبوا خيامهم داخل سورما ، ورأى الخليفة أن يذهب بصحبة زنكي إلى الموصل ، فدخل مسعود بغداد وأحسن إلى أهلها ، وصان بيوتها من أي ابتزاز أو نهب ، ثم جمع الاقطاب ، وعرض عليهم كتابا مكتوبا بخط الراشد يقول فيه : يوم أحشد الجيوش لمحاربة أمير من أمراء السلطان مسعود أصبح مخلوعا من الخلافة ، وكان موجودا بين الحاضرين ثلاثة شهود ممن وقعوا على تلك الوثيقة ، لذلك خلعوا الخليفة الراشد شرعا ، ثم بدأوا يذيعون التهم ضده ، وكان من جملة ما قالوه ، إنه خرق حرمة جوارى أبيه ، وعافر الخمرة ، وأعرض عن الصلوات وسفك دماء بريئة ، وتمادى في الظلم الخ .

أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله

دام حكمه أربعاً وعشرين سنة وشهرين، فبعد أن تم خلع الراشد استدعى السلطان الوزير شرف الدين الزينبي وأمره أن يعمل على اختيار خليفة جديد ، فاختر المقتفي ، وهم عم الخليفة المعزول ، وقد اختاره الوزير لأنه صهره ، أي زوج ابنته ، وأحضر المقتفي إلى بلاط السلطان مسعود وثبتوا خلافته بعدما تعهد أن يدفع إلى السلطان مائة وعشرين ألف دينار ، وكانت خزانة الخليفة عند مبايعته فارغة تماما ، لكن كان المقتفي يملك شخصيا قبل خلافته عشرة آلاف دينار غير أنه أنفقها كلها في حفلة مبايعته ، وقد ألغيت بعد استلام المقتفي الخطبة للراشد وللسلطان داود معا ، وصارت

للمقتفي وللسلطان مسعود ، وقيل إن السلطان مسعود حين غادر البلاط استدعى الوزير الزينبي وقال له معاتباً :

لقد أسأت بانتخابك رجلاً كامل السن عاقلاً ، فلو انتخبت فتى وربيته لبقى ينظر إليك نظرة امتنان وشكر ، بالتالي سيصبح أمر الخلافة وسياستها بيدك فترة طويلة ريثما يبلغ الرشده ، والآن كن على ثقة أن عهد وزارتك لن يطول مع من اصطفيته وسترى حقيقة ذلك .

وفي عام ٥٣١ للهجرة للعرب (١١٣٦ م) أرسل ابن دانشمند صاحب ملطية رسولا إلى السلطان مسعود في بغداد متوسلاً ليعيده إلى منصبه ، ولما رافقوا الرسول ليقبل الاعتاب كالعادة رفض قائلاً ، لن أقبل اعتاب دار طرد منها صاحبها .

بين زنكي والخليفة المقتفي

في هذه الفترة حشد زنكي جيشاً ، وزحف إلى تكريت وبدأ يناوش السلطان مسعود، ثم انقلب إلى الموصل فأرسل إليه المقتفي يعده بعشرة مدن مشهورة إذا ما كف عن مساندة الراشد ، فقال زنكي : لقد حلفت أن لا أسلمه إليكم ، ولكن إذا أعطيتموني تلك الأماكن أعلنت الخطبة باسمكم وتوقفت عن مساندة الراشد ، إنما سوف أبقيه في عهدي ، فأعطاه الخليفة عشرة أماكن وكان منها حربي وحاصريه وصاريفين والحلة وغيرها ، وخطب زنكي للمقتفي وللسلطان مسعود وأبقى الراشد عنده قابعا في دار الذهب بمدينة الموصل .
وفي تلك الأثناء كانت عجوز تخدم بيت تاجر قرب باب الأزح ببغداد ، وسافر التاجر لعمل وظلت امرأته وابنته والعجوز برفقتها في البيت ، فاتفقت هذه العجوز الشمطاء مع ابنها وبعض اللصوص ، فأقبلوا ليلاً وسرقوا كل ما في الدار ، ولما خرجوا قالت زوجة التاجر : للعجوز نشكر الله الذي أعمى عيونهم ولم يفتحوا

الصندوق ، فسمع اللصوص فرجعوا وفتحوه فوجدوا فيه أربعة آلاف دينار ، وأحجار كريمة ولآلئ ، فأخذوها وانصرفوا .

وفي هذه السنة اشتبك مسعود وداود فهزم مسعود وقتل العديد من رجاله .

وفي عام ١٤٤٨ يونانية (١١٣٧ م) زحف يوحنا ملك اليونان إلى قليقية غاضبا على لاون الأرمني فاستولى على طرسوس وأذنة والمصيصة وقبض على لاون وعلى زوجته وأولادهما ونفاهم إلى القسطنطينية ، ثم زحف بعد ذلك إلى أنطاكية فلم يستطع الاستيلاء عليها ثم أتى إليه جوسلين واتفقا على أن يعطيه الأفرنج أنطاكية ويجتاح هو حلب وسورية ، ثم يعطيها إلى الأفرنج ، ثم زحفا معا إلى حلب واحتلا بزاعا ثم تركا جيشا يحاصر شيزر .

وفي هذا الوقت زحف مسعود سلطان قونية إلى قليقية فاجتاح أذنة وساق أهلها جميعا مع أسقفهم إلى ملطيه ، وعندما علم يوحنا بذلك أحرق المنجنقات وارتد إلى قليقيه حيث عقد هدنة مع مسعود ورجع إلى عاصمته .

أما محمود صاحب ملطيه فقد طرد أخاه دولت ونزع منه ولاية ابلستين وجيحان ، وسار دولت الى هنزيط ، ثم الى آمد وزار جوسلين ، ثم أخذ يطوف بالبيوت واحدا واحدا .

وفي هذا الوقت ظهر الأمير عيسى صاحب سويرك (٦) وكان متفاهما مع بوغوص الأرمني الذي سار إلى بغداد ودخل في دين الاسلام ، فحشد الجند وانطلق إلى جرجر ليستولي عليها ، لكنه وجدها خرابا فزحف إلى الأديرة والصوامع فانقض على دير مكار أبحاي المعروف بدير السلام (٧) فلم يتمكن من الوصول إليه من ناحية شاطيء الفرات فدخلوا الجبل الصخري حيث هبط رجاله من هناك فهرب الرهبان فاستولى على الدير وعلى ما فيه من أمتعة وكؤوس وأطباق فضية وصلبان ، ونزع قناة الماء التي كان قد

وضعها البطريرك يوحنا بن عبدون (١٠٠٤ - ١٠٣٠ م) ،
وأرسل أربان داوود الناسك إلى دير شيرا، ولم ينج من شره سوى
دير أبي غالب المعروف بدير مائدة الملوك، الواقع في أحواز مدينة
أمد .

وفاة الراشد الخليفة المعزول

وفي عام ٥٣٢ للعرب (١١٣٧ م) انطلق الراشد الخليفة
المعزول من الموصل إلى خراسان للاجتماع بالسلطان داود ، فاتفق
الاثنان ثم زحفا بجيشهما إلى همذان وانتزعاها من سيطرة
السلطان مسعود ، ثم توجه الراشد بعد ذلك إلى أصفهان لكن
سرعان ما ألم به داء الأزمه فراشه ، وانقض عليه وهو طريح الفراش
أربعة خراسانيين وقتلوه ، وقد قيل لولم يقتله هؤلاء الخراسانيون
لعاجلته المنية بسبب الداء الذي أصابه ، وقد قيل إنه سقى السم
ثلاث مرات ، وقد دفن بباب أصفهان حيث صرع ، وكان والده قد
قتل كذلك عند باب مراغه .

وعندما كان الأتراك يحاصرون الرها ١٤٤٩ يونانية
(١١٣٨ م) حشد الفرنج ثلاثمائة فارس وأربعة آلاف راجل
وتوجهوا من سميساط لنقل المؤونة إلى الرهاويين ، فكمن لهم
تمرتاش صاحب ماردين وقتل العديد من المسيحيين وأسر البقية
وساقهم عبيدا ، وكان بين الأسرى الشماس أبو سعد الطبيب
الفيلسوف ، وميخائيل ابن شومنا وابنه واستولى تمرتاش كذلك
على قلعة كسوس من الفرنج كذلك دخل مسعود سلطان قونية بلد
كيسوم وغزاها وأحرق القرى المحيطة بها .

وفي الشهر الثاني من سنة ٥٣٣ للعرب (١١٣٨ م) حدث زلزال
عنيف في غزنة ببلاد العجم فقتل مائتين وثلاثين ألف نسمة ، وهدم
المدينة برمتها ، ونبتت من أرضها مياه سوداء وخرج الذين نجوا من
الكارثة إلى المقابر حيث أقاموا فيها يندبون أهاليهم .

وفي سنة ١٤٥٠ لليونان (١١٣٩ م) زحف الملك محمد صاحب ملطيه إلى قليقية واحتل حصن هاجاي وحصن جينوفرت وسار إلى قاسينوس وهي على ساحل بحر بنطش فغزاها وباع أهلها جميعا عبيدا . وفي السنة التالية انشقت أرض الرقة وابتلعت أربعين فارسا مع خيولهم ، ولم ينج سوى واحد منهم كان يتغوط ، وقد ظل الناس يسمعون أصواتا بشرية وزمجرة خيول في ذلك المكان فترة طويلة. وفي سنة ٥٣٤ هـ (١١٤٠ م) صح ماتوقه السلطان مسعود عندما قال للوزير شرف الدين إنك أخطأت في اختيار رجل كامل متمرس مثل المقتضي ، لأنه بدأ يتصرف في شؤون السياسة بون استشارة الوزير ، وكان أن انزوى الوزير في بيته ، فأرسل الخليفة في طلبه وكف يده عن ممارسة أعماله ، ثم مالبت أن عزله نهائيا ، وفي تشرين أول من عام ٥٣٥ هـ (١١٤١ م) سار أتراك ملطيه إلى أديرة زوبر وقنايا ونهبوها ، فأقبل الفرنج في أيار بحجة طلب الثأر فوصلوا إلى زبطرة وعرقه لكنهم نهبوا أموال المسيحيين كما كان قد نهبها الأتراك ، ثم زحفوا إلى أبلستين ونهبوا المسيحيين هناك وفتكوا بعدد كبير من الأتراك واعتقلوا أولادهم ونساءهم فغضب الأتراك وزحفوا من هنزيط فصادفوا مطران قليسورا (٨) القديس في جبل أيدهور ، فقبضوا عليه واعتقلوه هو ومن معه ، وحاولوا اغتيالهم، لكن الأفرنج باغتهم وهزمهم فهربوا تاركين أسراهم مقيدين فأطلقهم الأفرنج .

وزحف يوحنا ملك اليونان إلى نوقيساريه وخيم أمام الأتراك وجها لوجه لكن ظل عسكره وعسكر الأتراك ستة أشهر بون قتال وأخيرا افترقوا بون حرب ، وقد كان الأتراك في ذلك الحين يقتلون بالسيف كل مسيحي يتلفظ باسم ملك اليونان أو الفرنج لأي سبب ، وقد قتلوا عددا كبيرا من الملطيين لهذا السبب .

وفي سنة ٥٣٦ هـ - ١١٤١ م أرسل خوارزم شاه إلى ملك الهون ليعد جيشا من الذين لم يعلنوا إسلامهم - وكان العرب يسمونهم « كافر ترك » - لمحاربة السلطان سنجر قاتل أخيه ،

فتأهب أولئك الهون وكانوا ثلاثمائة ألف ، وقاتلوا مائة ألف من أصحاب سنجر عند نهر جيحون وقتلوهم قاطبة ولم ينج من سيوف الهون إلا سنجر وستة من رجاله فقط كما قيل . فهرب الى بلخ ، وقد أسر الهون امرأته وابنة بنته مع أربعة آلاف امرأة ، وهكذا أهلكوا المائة ألف قتلا وسبيا .

موت الملك محمود

وفي سنة ١٤٥٤ يونانية (١١٤٣ م) مات الملك محمود في قيسارية فأوصى بالمملكة لابنه ذي النون ، لكن زوجته خاتون استدعت أخاه يعقوب أرسلان واقتربت به وولته سبسطية ، ففر ذو النون الى سينابو وتولى قيسارية ، أما الأخ الآخر دولت فقد اتفق مع يونس صاحب حصن مسارا ، وزحفا معا الى ملطية وحاصراها ، لكنهما لم يستطيعا الاستيلاء عليها ، فغادراها الى عرقة وأرسلت الخاتون ألفي جندي الى ملطية ليحرسوها ويستخرجوا من فيها من الأتراك ويبعدوهم الى سبسطية ، فثارت ثورة الأتراك وحطموا بالفؤوس باب المدينة وهو باب بوريدية ، وذلك رغما عن الحاكم وهزموا الزاحفين وأرسلوا فأحضروا دولت في اليوم ذاته وسلموه ولاية المدينة ، وعندها زحف مسعود سلطان قونية الى سبسطية وأخضعها ، ثم انقلب الى ملطية فحاصرها في السابع عشر من نيسان ، أما دولت فأخذ ينكل بالمسيحيين ويطالبهم بالأموال لدفع أجرة المحاربين ، لكن بعد ثلاثة أشهر احرق السلطان المنجنيقات وارتحل ، وكان ذلك ليلة عيد الصليب ١٤ - ليلول فاستراح برحيله الأهالي .

وفي أحد أيام نيسان في تلك السنة خرج يوحنا ملك اليونان للصيد فهاجمه خنزير بري وقتله ، وكان قد أوصى بالمملكة لابنه الصغير منويل لأن ابنه الكبير كان غائبا ، فتولى منويل المملكة في نيسان

عام ١٤٥٥ يونانية (١١٤٤ م) ولما دخل العاصمة رجب به أخوه واعترف به ملكا وأيده .

وكذلك مات ملك بيت المقدس الفرنجي أثناء الصيد فقد سقط عن حصانه ومات فخلفه ابنه الصغير بلبوين الثالث ، وتولت امه الوصاية عليه فأخذت تسوس المملكة بسبب حادثته .

وفي السنة ذاتها مات داود صاحب حزن زياد وخلفه ابنه الصغير قرا أرسلان ، لأن ابنه الكبير « أرسلان طغميش » كان بالموصل عند زنكي فأراد أن يبعد قرا أرسلان ويقيم مكانه أخاه وحليفه أرسلان طغميش، فاستنجد قرا أرسلان بالسلطان مسعود في قونية، فأرسل له عشرين ألف فارس لمقاتلة خصمه فهرب الى الموصل ، ثم أقبل السلطان مسعود الى ملطية وحاصرها ثلاثة أشهر دون أن يحقق هدفه ورحل .

انتزاع الرها من الأفرنج

في سنة ١٤٥٦ يونانية (١١٤٤ م) كان جوسلين صاحب الرها في انطاكية ، فأرسل الحرانيون الى زنكي أن المدينة خالية من العسكر ، فتوجه زنكي اليها في جيش جرار يوم الثلاثاء ٢٨ تشرين الثاني ، وخيم في ضواحيها عند باب الساعات قرب كنيسة المعترفين ، وأقام هذا الجيش سبعة منجنيقات ضخمة وصعد رهبان الجبل أعلى السور وأخذوا يحاربون لعندم وجود عسكر فيها ، وكانت النساء يقدمن لهم الحجارة والماء والطعام ، وحفر الأتراك نفقا حتى بلغوا السور ، فقام الرهاويون بحفر نفق مقابل ، وبرزوا لقتالهم وأهلكوا كل من صادفوه في الحفرة ، وعادوا فأقاموا سورا ثانيا مقابل النفق فتحول الأتراك وأخذوا يحفرون تحت أبراج السور ، فتخلخت وشارفت على السقوط فأرسل زنكي الى الرهاويين يقول : خذوا منا رجلين وابعثوا لنا رجلين ليشاهدوا الأبراج كيف تداعت ، وسلموا المدينة قبل ان تؤخذ بالسيف .

غير ان المطران ببيوس رئيس الفرنج في الرها لم يكثرث لمقولة زنكي ، لانه كان واثقا من مساعدة جوسلين وملك بيت المقدس ، وعند ذلك أضرم الأتراك النيران بالأخشاب تحت الأبراج فسقطت وأخذوا يدخلون في النفق على الرغم من ان ببيوس والأساقفة كانوا على رأس المدافعين عن النفق وقد اشتد فيه القتال حتى امتلأ بجثث القتلى من الأتراك والرهاويين معه ، وتجمهر الرهاويون عند فم النفق ورأى الأتراك أن المحاربين قد تركوا السور فوضعوا السلالم وتسلقوا السور ، وعندما شاهد الرهاويون ذلك انهارت عزائمهم وشرعوا بالالتجاء الى القلعة .

وفي الساعة الثالثة من يوم السبت الثالث من كانون الثاني دخل الأتراك مدينة أوجر خليل السيد المسيح بسيوفهم المسلولة المتعطشه للدماء يقتلون الشيوخ والفتيان والرجال والنساء والكهنة والشمامسة والرهبان والذسك والراهبات والعداري وحتى الأطفال والرضع، وان القلم ليعجز عن وصف ماحدث ، وان اليراع ليتجمد بين الأصابع ان اراد ان يكتب عن الفظائع ، لقد أصبحت هذه المدينة موطناً للأقدام وربما بسبب أماننا ، او بسبب كفر الابناء بأبائهم ، والآباء بأبنائهم ، فذسيت الأم رضيعها وفر كل واحد يطلب الخلاص لنفسه الى قمة الجبل .

أما الشيوخ من الكهنة فكانوا يرددون وهم يحملون صنابير الشهداء قول النبي ميخا - اني احتمل غضب الرب لاني أخطأت اليه. (ميخا ٧ : ٩) وأخذوا يبتهلون الى الله حتى اسكتهم السيف التركي ، وشوهوا بعد ذلك وقد تضرجت ثيابهم بالدماء ، وبقي عدد كبير من النساء مع أولادهن ينتظرن الموت بالسيف والأسر والعبودية ، أما الحراس فقد إقفلوا الأبواب بوجه الجحافل التي لجأت الى القلعة قائلين: لن نفتح الأبواب حتى يتقدم الينا ببيوس ، ولكن ببيوس لم يستطع الخروج مع الأوائل بسبب الازحام الشديد الذي أهلك العديد وجعل جثثهم تتراكم اكواما عند باب القلعة ، ولما وصل ببيوس اليهم اصيب بسهم أوداه قتيلا .

ولما شاهد زنكي تلك الأحوال أمر ببايقاف القتال ، وشهود المطران باسيلوس عريانا حافيا يجره تركي بالحبل ، وما أن رآه زنكي حتى لمح النعمة التي على وجهه فسأله من أنت ؟ ولما عرف أنه المطران أمر رجاله فألبسوه ثوبا ومضى به الى خيمته ، وأخذ يعنفه ويوبخه لأن الرهاويين لم يشفقوا على أنفسهم ، ويسلموه المدينة ، فقال له المطران : إن العناية الربانية شامت ان تمنحك الغلبة وتذيع مجدك بين الملوك وتتولى علينا نحن الأذلاء لاننا غدرنا ، ولاننا حنثنا بأيماننا فاستحسن زنكي كلامه ، وقال له : قد صدقت فيما قلت ايها المطران ، فإن الله تعالى والبشر كذلك يكرهون الذين يحافظون على ايمانهم ويثبتون عليه حتى الموت ، وبعد يومين طلب الامان من التجأ الى القلعة وسلموها ، فقتل الاتراك كل من رآوه من الفرنجة ، وأبقوا على السريان والأرمن ، ان لساننا عاجز عن الاسترسال في شرح تلك الداهية الهائلة ، ولأرميا النبي ونظرائه أن يفيضوا في المراثي ويستدعوا النائحات النادبات ليفعلن مثلهم ويندبن الشعب الجدير بالعطف والشفقة .

وقد التهمت النيران يوم فتح الرها دير القراريط ببلدة خرشنة واطلفت حجره جميعا ، وقضت على شيخ راهب ، ونجا سائر الرهبان ، واحترقت في اليوم ذاته قرية ببلدة مرعش ، وسقطت نار على دير مار برصوم واطلفت ثلاث غرف الى ان تم اطفائها ، وقد نظم في مأساة الرها هذه ديونيسيوس بن الصليبي قصيدتين ، وباسيلIOS مطرانها ثلاث قصائد ، كلها على وزن قصيدة مار يعقوب .

وبعد أن احتل زنكي الرها سار الى البيرة وهي قلعة حصينة للأفرنج تطل على الفرات ، وحاصرها حصارا شديدا، لكن خبرا أتاه ان فتنة وقعت في الموصل ، وأن نائبه نصير الدين قتل ، فترك البيرة وعاد الى بلده ، أما الفرنج فقد خافوا من عودة زنكي فكتبوا الى

حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين وسلموه اياها .

وخاف ايلغازي أن يزحف زنكي الى بلاده ويحتل قلاعه وسائر ولايته ، فقوض قلاعا كثيرة منها قلعة حور عبار ، وقلعة تلبسمة (٩) وقلعة تل شيخ ، وقلعة المرأة التي بجانب دير مار حناينا ، وبقي تمرتاش يحاصر قلعة الهتاخ (١٠) سنة واربعة أشهر حتى انتزعها من صاحبها الكردي ، وهادنه ودفن له كمية من الذهب وترك له بعض القرى .

وفي هذا الوقت خرج ارسلان طغميش بن داود صاحب حصن زياد من عند زنكي ، وسار الى بلد تل ارسانيوس (١١) وطلب الى اصحابه أن يسلموه اياه فرفضوا لأن اولادهم كانوا رهائن في حصن زياد ، فحارب البلد واحتله واستعبد اهاليه وعددهم خمسة عشر الفا مع اسقفهم طيمثاوس وباعهم .

وفي سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٤ م) دفع زنكي جنودا الى قلعة فنك المجاورة لجزيرة قردو (أو ابن عمر) وهي قلعة حصينة تطل على دجلة ، احتلها الاكراد البشديوون منذ ثلاثمائة عام .

مقتل زنكي

وفي سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) أصلح زنكي الأوضاع في الموصل على أثر مقتل نائبه نصير الدولة ، وأقبل الى حلب وحشد الجنود ، وزحف الى قلعة جعبر ، وفي احد الأيام بينما كان جالسا في خيمته احضر اليه الصنائع طبقا ذهبيا لينظره ، فحنى رأسه وأخذ يتأمله ، فاستل أحد الحرس سيفه وطعنه من خلفه وحز رأسه ، وروى غير هذا قيل قتل ليلا وهو سكران غارق في نومه ، وأسرع ثلاثة من عبيده الى اسفل القلعة وهم يصيحون للحراس اسحبونا اليكم لنبلغكم بشرى تبهجكم ، فدلوا جبلا

وسحبوهم واحدا فواحدا ، فأخبرهم هؤلاء بما حدث وقالوا لهم : انفخوا الأبواق ونادوا من أسفل القلعة اليه وشاهدوه منبوحا .

أما محمود بن زنكي الذي دعي نور الدين ، وكان مع أبيه ، فقد شدد القتال على القلعة حتى أرهق هو والمحاصرين ، ثم قال لهم : سلموني قتله أبي وكونوا في طمأنينة ، فسلموه الثلاثة فقتلهم واحرق جثثهم .

وكان لزنكي أربعة بنين وابنة واحدة وهم : سيف الدين غازي ، ونور الدين محمود ، وقطب الدين موبود ، ونصرة الدين امير اميران ، وأختهم ، وكان قد بنى في الموصل نورا ملكية لأنه لم يكن فيها الا دارا ملكية واحدة مقابل الميدان . وقد عمق أساسها ووطد أسوارها ، وفتح بابا يقال له باب العمادي أقام حوله الحدائق ، وقد ازدهرت الزراعة في زمانه ، وكان لزنكي جواسيس في بلاط السلطان يخبرونه بكل مايجري هناك ، وكان اذا ما قدم الى بلاده رسول ما ، نهاه عن محادثة الجنود والاهالي .

وقد دفع يوما الى واحد من عبيده طبيخا وقال له : احفظه لديك ، فأبقاه عنده سنة كاملة ، ولما سأله زنكي عنه اعاده له فورا فأعجبه ذلك العمل وقال له : الى مثلك ينبغي ان افوض حراسة البلد ، ثم ولاه قلعة كواشي ، وقد ملك زنكي سورية تسع عشر سنة ، وكان عنده عندما قتل في قلعة جعبر امير كبير عاقل اسمه اسد الدين شيركوه ، قال لنور الدين بن زنكي : يلوح لي أن وزير أبيك يحاول استمالة الجيوش الى اخيك سيف الدين ليأتي به الى الموصل ، فالأفضل أن أخذك الى حلب لتتولاها ، وتتولى سورية معها ، وبذلك يسهل عليك احتلال الموصل واقليمها وبلاد المشرق . ولما تم ذلك اجتمع نور الدين بجيوش سورية ومضى بهم الى حلب وتولاها مع قلعتها ، ثم ارتحل أخوه سيف الدين الى الموصل وتولاها وأيده السلطان مسعود الذي كان يخلص له المودة ، وسبق

نور الدين، فأدى له خدمات جلى يوم كان والده حيا يرزق ، وارسل السلطان الى سيف الدين حله ملكيه تأييدا له في منصبه ، وكان نور الدين يخاف أخاه سيف الدين فيرسل اليه الهدايا معربا عن اخلاصه متجنبا لقاؤه ، وبعد ان تعاهدا معا سار سيف الدين الى سورية، وبإمره نور الدين مقبلا الأرض أمامه فتعانقا وبكيا، وقال سيف الدين لأخيه:لماذا لم تأت الي ، هل خفت مني ، ثق يا أخي انه لم يخطر ببالي ماخطر ببالك ، وماذا تنفني الحياة والبلاد اذا أسأت الي أخي ، وهكذا اتفق الأخوان وعاد كل منهما الى بلده ، وعلى أثر مقتل زنكي سار ريموند صاحب انطاكية الى اطراف حلب وحماة ، وفتك بكثير من العرب ، وغنم غنائم وافرة ، وفي طريق العودة ادركه شيركوه ، واسترد منه الغنائم ، وسار مجير الدين صاحب دمشق الى بعلبك وحاصرها حتى انتزعها من نجم الدين أيوب ، والد صلاح الدين ، وترك له بعض القرى ، وعاد الى دمشق.

واقعة الرها الثانية

وفي تشرين الاول من عام ١٤٥٨ يونانية (١١٤٧ م) اقبل جوسلين وبلدوين صاحب كيسوم الى الرها ، وتسلق رجال الفرنج البرجين ليلا بعد ان اتفقا مع حراس السور ، وكانوا من الارمن فهرب الاتراك الى القلعة ، وفي الصباح فتحوا باب الماء وبخله جوسلين لكن لم تمض ستة ايام حتى باغتهم نور الدين قانما من حلب في عشرة الاف تركي ، فاجبر جوسلين الرجال والرهاويين ونساءهم وفتياتهم وفتياتهم على الرحيل قسرا في الساعة الثانية ليلا ، ولما جاء الصباح رأهم الاتراك فهاجموهم واخذوا يرمونهم بالسهام التي اخذت تتساقط عليهم مثل حبات المطر ، ثم انقض الاتراك على الرهاويين الاسرى في صفوفهم الطويلة ، وانقضوا على الاشراف من ابناء المدينة العظيمة ، وعندما تركهم الفرسان

الفرنج وانهزموا ، اذ عجزوا عن المقاومة ، اما الجنود الافرنج فالتجأوا الى حصن خراب يدعى حصن كوكب ، واحتموا به ، بالزمان الغضب ، تبا لهذا اليوم المشؤوم ولهذه الليلة التي كانت احدى ليالي جهنم ، لقد خرق الاتراك هذه الصفوف الطويلة من البشر بسيفهم ، ثم اخنوا يسحقونهم سحق النار للهشيم وذلك بعدما أخذوا ينتزعون احنيتهم وثيابهم ويوتقونهم بالحبال ويحثونهم على الركض حفاة عراة رجالا ونساء ، ويضطرونهم أن يتبعوا الخيل ، وقد زاد عدد القتلى في المرتين الاولى والثانية على الثلاثين الفا ، واستعد الاتراك ستة عشر الفا ، ولم يفلت مع رجال الفرنج الذين انهزموا الى حصن كوكب سوى الف رجل فقط ، وقد باع الاتراك كل من اسروهم في بلاد مختلفة ، واصبحت الرها خاوية خالية مخضبة بدماء اولادها ، مليئة بعظامهم تتغذى بلحومهم وحوش الليل ، وقد فقدت جثة بلدين صاحب كيسوم ، وافلت جوسلين اللعين الى سمسيات ، وهرب الطران باسيلوس مطراننا وقبض على مطران الارمن مع عدد كبير من جماعته.

الحملة الصليبية الثانية

لما سمع الفرنج بما جرى من الفظائع في الرها تدفقوا: من إيطاليا ، واقبل ملك الالمان (١٢) في تسعين ألف فارس وملك فرنسا (١٣) الذي يدعو العرب فوتش في خمسين ألف فارس ، عدا الرجالة الذين بلغوا أعدادا كبيرة ، وتوجهوا سنة ١١٤٨ م إلى القسطنطينية وشنوا عليها هجوما مريدا بعد أن عرفوا خيانة اليونان للأفرنج وغدرهم بهم ، فدفع لهم الملك منويل ذهباً كثيراً ، وأقسم أن يدلهم على طريق أمنة ، لكنه غدر بهم ثانية وأرسل معهم ادلاء أرشدوهم إلى طريق وعرة وجبال قاحلة لاماء فيها ، فتاهوا

وبقوا خمسة أيام لا يعرفون أين هم بعد أن هرب اليونانيون ، فمات العديد منهم عطشا مع خيولهم ، وسمع بهم الأتراك فانقضوا على شتاتهم في الجبال وراحوا يفتكون بهم مجموعة تلو الأخرى حتى امتلأت بلادهم من الغنائم، وبيعت الفضة في ملطية بثمن الرصاص .

أما الأفرنج الذين نجوا وعادوا إلى سواحل بحر بنطس فقد أخذ اليونان يخلطون لهم القمح كلسا ويطعمونهم إياه ، فكانوا يسقطون موتى بالأكوام ، وقد تمكن ملك الألمان من النجاة مع ثلاثة من القمامصة فسار إلى بيت المقدس وصلى وتبرك بقبر المخلص ، وأقام فيها بضعة أيام ثم زحف إلى دمشق في عشرة آلاف فارس وستين ألف راجل وكان عدد الأتراك والعرب نحو مائة وثلاثين ألف راجل عدا الفرسان ، ولكن الأفرنج دبت فيهم الشجاعة والفرح فحملوا عليهم حتى وصلوا إلى الأنهار ودخلوا الجنائن ، فقام معين الدين - حسبما ذكر البطريق ميخائيل السرياني في تاريخه - صاحب دمشق وأرسل إلى ملك بيت المقدس مائتي ألف دينار من النحاس المصري ، لكن المطلي بالذهب ، وأرسل كذلك إلى صاحب طبرية خمسين ألفا من الذهب الزائف ، وعندما اكتشف الأفرنج الخديعة وأدركوا الحيلة ترك ملكهم دمشق ، وعاد إلى وطنه وقلبه يتقطر ألما وأسى ، على أنه قد طالعت خمسة كتب عربية مختلفة ، لكنني لم أعثر فيها على قصة التزييف الذي تكلم عنه البطريق ميخائيل في تاريخه .

وهكذا كانت نهاية هذه الحملة ، ونهاية أعدادها الهائلة .

ولما علم ملك صقلية نبأ خيانة اليونان غضب غضبا شديدا ، وسار إلى مدينة تيبايس، فاحتلها وقوض أركانها وأهلك أهلها بقوة السيف ، وكذلك فعل في أرنة ، وفي فيلبسة ، ثم توجه إلى القسطنطينية نفسها فخرّب ضواحيها وأتلف زروعها ، وعاث في الأرض فسادا

ظهور توماس الأرمني

في تلك الاثناء مات لاون الارمني صاحب قيليقية في القسطنطينية وفر ابنه توماس راجلا إلى قيليقية ، وزار مطران السريان اثناسيوس طالبا صلواته ليرد الله تعالى ميراث أبائه إليه ، فصلى له وأهداه حصانا بمثابة بركة ، ومألبث أن لحق به اثنا عشر أرمنيا ، وسار أول الأمر إلى حصن عامودا فلما شاهده الحراس وعلموا أنه ابن مولاهم فتحوا له الأبواب ، فدخل الحصن بسلام وقتل من كان فيه من اليونان ، واحتل في مدة وجيزة أماكن شتى ، فبدأ الروم الذين في سائر الحصون يهابونه ويحسبون له ألف حساب ، ثم اتفق الفرنج معه وقاتلوا الأتراك وفتكوا بثلاثة آلاف منهم ، وذاع خبر انتصاره، وبات الأتراك يرهبون سطوته وبأسه ، فقام واحتل بعد ذلك عين زربه وغيرها من الأماكن . وفي تلك السنة استولى نور الدين بن زنكي على أفاميا ، وعلى بعض حصون الفرنج ، فأعد له صاحب أنطاكية كميناً فتك بكثير من عسكره ، لكنه نجا مع قلة من رجاله فاتجهوا إلى حلب .

وفي سنة ١٤٦٠ يونانية ٥٤٣ هـ (١١٤٩ م) زحف نور الدين إلى حارم وغزا ضاحيتها ، وهدم أبنيتها المقامة خارج القلعة ، وسار البرنس صاحب أنطاكية إلى محاربتة والدفاع عن حارم ، لكن الأتراك تغلبوا عليه وقتلوه ، وكانوا قبل ذلك يهابونه جدا لقوته الجبارة ، ثم وقعت فتنة بين الأنطاكيين ، فقد أراد غالبيتهم أن يسلموا مدينتهم لنور الدين، إلا أن بعضهم أرسلوا إلى ملك بيت المقدس طالبين النجدة ، فسارع إليهم وبث الشجاعة والنخوة في قلوب فرسانهم ، وجعل بطريركهم مدبراً لأمورهم إلى أن يكبر بوهموند ابن البرنس القليل ، وقتل صاحب كيسوم في هذه المرة ، فتولاها جوسلين وتولى أيضا قرية بيت حسنه .

وفي هذه السنة أقبل قلج أرسلان بن مسعود سلطان قونية

وحاصر مرعش وانتزعها من يد الفرنج ويسر للفرسان وللأسقف وللقساوسة الذهاب إلى أنطاكية ، لأنه كان قد تعهد بذلك قبلا ، إلا أن الأتراك أدركوهم وفتكوا بهم ، وانتزع قرا أرسلان صاحب حصن زياد من الفرنج بلدة الجبولة وبعث جنودا إلى جرجر كمنوا في ثلاثة أماكن مستورة ، وكان أهلها مختبئين في جبال برصوما ، فانقض هؤلاء الجنود صباحا ونهبوا المواشي والبقر ، وفتكوا بثلاثة من رهبان الدير وأرسلوا إلى الرهبان يقولون : سلمونا أهالي جرجر نرد لكم الغنائم ونحترم قديسكم ، ونقدم له النذور ، لأننا لم نأت معتدين على أديرة وليس في نيتنا أن نستعبد الأهالي ، لكننا نريد أن نعيدهم إلى أراضيهم ليفلحوها ، إلا أن الرهبان لم يتفقوا على رأي ، فأراد بعضهم التسليم بينما رفض بعضهم الآخر هذه الفكرة حتى أدى بهم الخلاف إلى القتال بالسيف ، وعند ذلك نهض راهب شيخ واصطحب شخصين من كلا الفريقين وساروا خمستهم إلى الأتراك وقالوا لهم : إن كنتم صادقين في طلبكم الأهالي للحراثة لا للعبودية فليات فـريق منكم معنا فنذهب ونراجع أميركم المحروس ، ونأتمر بأمره ، لكنهم سرعان ما اكتشفوا مكر الأتراك ، وأجمع الرهبان ومن معهم على الرفض فثارت ثائرة الأتراك وأحرقوا المعاصر وسيج الكروم ، وانقلبوا عائدين ، وسار الرهبان إلى حصن زياد وقابلوا الأمير فأشفق عليهم ورد لهم كل ما أخذ الأتراك منهم .

وفي السنة ذاتها قدم جوسلين من تل باشر في مائتي فارس ، وتوجهوا إلى أنطاكية وفي اعتقادهم أنهم سيواجهون ألفا فقط ، فباغتتهم التركمان ليلا وهزموهم وطاردوهم حتى قبضوا على جوسلين وساقوه إلى نور الدين فاشتراه بألف دينار ثم أوثقه وحبسه ، وبقي جوسلين محبوسا تسع سنوات ، وكانوا يلجأون إلى الوعد تارة وإلى الوعيد تارة أخرى ليجبروه على المجاهرة بالاسلام ، لكن إيمانه كان راسخا ، وكان يدرك في قرارة نفسه أن الرب إنما أدبه لتعديه على دير برصوما كما سنذكر ذلك في تاريخ الكنيسة .

ولما أحس بدنو أجله استدعى أسقف المدينة فعرفه وأعطاه الأسرار المقدسة ، وقضى في قاع البئر حيث كان مسجوناً ، وأثناء أسره حمل الأتراك على كثير من أماكن الأفرنج واحتلوها مثل جرجر وختي وحصن منصور وتاكنكار التي بجانب الدير ، ولما علم الأفرنج بوفاته أقاموا ابنه الفتى خلفاً له في تل باشر ، وكان اسمه جوسلين أيضاً .

وفي عام ١٤٦١ يونانية (١١٥٠ م) أرسل أهالي كيسوم مطرانهم ايونيس إلى مسعود سلطان قونية طالبين الأمان للأفرنج الذين عندهم ليذهبوا إلى عينتاب فلبى طلبهم ، ثم استولى على مدينتهم وعلى قرى بيت حسنة ، ورعيان وفرزمان ومرعش ، وعندما كان يحاصر تل باشر أقبل إليه نور الدين فزف إليه السلطان ابنته ، فترك تل باشر ولم يتيسر له احتلالها ، ولم يمض وقت قليل حتى جاء ملك بيت المقدس ونقل معه زوجة جوسلين وأبناءه وجميع الأفرنج وأقام في تل باشر بعض أتباع يونان فاحتلوا عينتاب وأعزاز ، ثم ضيق عليهم نور الدين قتلاً وجوعاً فسلموه إياه دون حرب ، واحتل تمرتاش صاحب ماردين مدينة البيرة وسميساط وقورس وكفرسوت ، وفي ذلك الوقت كان في قلعة الروم ميخائيل الأرمني، فكتب إلى زوجة جوسلين وابنها ليأمرَا غريغوريوس جاثليق الأرمن الموجود في دير البحرة أن يأتي إليه ويقوم عنده ويساعده، لكن الجاثليق خان ميخائيل واحتل كل ماله وطرده واستقل بقلعة الروم .

وفي سنة ١٤٦٠ يونانية (٥٤٤ هـ / ١١٤٥) انتزع سيف الدين ابن زنكي صاحب الموصل مدينة دارا من تمرتاش صاحب ماردين ثم زحف إلى ماردين وحاصرها فزف إليه تمرتاش ابنته وهادنه ، لكن ما إن وصل إلى الموصل حتى مرض ومات وخلفه أخوه قطب الدين موبود ، فتزوج ابنة تمرتاش وعند ذلك أرسل أحد زعماء الموصل إلى نور الدين ليتجه من حلب إلى الموصل ، فركب مع سبعين فارساً واحتل سنجار ، وأرسل في طلب المساعدة من قرا أرسلان صاحب الحصن مقابل منحه قلعة هيثم .

أما أخوه قطب الدين فقد حشد الجيوش ومشى إلى تل أعفر ليصد نور الدين ، فتدخل الزعماء واقترحوا حلا وسطا يجعل حمص لنور الدين بعد انتزاعها من سيف الدين وأن يرد نور الدين سنجار إلى قطب الدين ويرجع إلى حلب .

وفي ٢٣ آب من تلك السنة حدث فيضان في حصن زياد جرف صبيا مع أمه وبغليين وحمارا وقد هلكوا جميعا .

وفي سنة ١٤٦٢ يونانية (١١٥١ م) قتلت زوجة صاحب ايزنجي زوجها وأتت بأخيه من ديبارجي وتزوجته ، وملك مكان زوجها الأول .

وزحف أمير تركي إلى دير سيريكيا اليوناني في بنطس ، وانتزع منه الصليب الذهبي الذي كان يحوي قطعة ثمينة من خشب الصليب حيث تمت به عجائب كثيرة ، ولم يعدها إلى الرهبان إلا بعد أن سلب منهم كمية كبيرة من المال .

كذلك أخذ اليونان يسخرون ويجدفون على مار برصوم ، ويقولون لو كان قادرا على فعل العجائب لما ترك جوسلين يسلب نخيرته .

وفي تلك السنة زحف نور الدين إلى ضواحي دمشق وأرسل يقول لاهلها : أنا لم أت لأحاربكم بل لأزيل العار عنكم ، فأنتم ما زلتم حتى الآن تؤدون الجزية للفرنج ، وقد أصبح أبناؤكم أسرى لديهم ، ولم يساعدهم أحد ، فبعث إليه الدمشقيون يقولون : إننا نعيش في بحبوحة وأمان مع الفرنج ، ولسنا في حاجة إلى مساعدتك ، وإن لم ترجع إلى حلب فإننا سوف نرسل إلى الفرنجة ليقفوا معنا ضدك ، فاستشاط نور الدين غضبا وأراد أن يحاصر المدينة لكن الله سبحانه أنزل من السماء وابلا من الأمطار لم ينقطع ففترت همته ، وسار إليه زعماء دمشق وهاننوه أن يخطبوا له بعد الخيفة والسلطان ، فتركهم وعاد إلى حلب

في سنة ١٤٦٣ يونانية (١١٥٢ م) برز الفرنج ثانية من رومية غاضبين على اليونان فاقبلوا الى ضواحي القسطنطينية وأحرقوها جميعها ، ثم ذهبوا الى فلسطين فأحرقوا قرى عديدة في عسقلان وقتلوا عددا كبيرا من الاتراك والعرب ، ثم تابعوا الى مصر فخرجوا واحرقوا كثيرا من قراها الغربية ، ثم عادوا الى وطنهم .

وفي السنة ذاتها مات بولت صاحب ملطية وخلفه ابنه نو القرنين ، فعلم بذلك مسعود سلطان قونية فهجم على يعقوب ارسلان اخي بولت واخضعه ، ثم هاجم ملطية فخرّب ضواحيها، فخرجت اليه ابنة اخيه والدة ذي القرنين وتوسلت اليه يدع ابنها، وقال لها السلطان : إذا اتى إلي خاضعا تركت له المدينة فخرج اليه نو القرنين حاملا سيفا وكفنا فرحب به مسعود وأيده وتركه وشأنه وهكذا استحوذت أمه على المدينة وفرضت الضرائب على المسيحيين والعرب وحشدت نساء لتفتك بابنها الصغير، الا ان الزعماء اطلعوا على نيتها فطردوها مع ساحراتها ، وصحت فيها بذلك آية النبي . « امكثي على رقاك وانواع سحرك الذي عنيت به منذ صباك ، قد أعيتت من كثرة مشورتك » (اشعيا ٤٧ : ١٢ - ١٣) . وفي هذه السنة هطلت امطار غزيرة جرفت احجارا ضخمة وتلالا وصدعت جانبا من الجبل وتدحرجت الصخور في الوادي الذي بين ابدهار وخرشنة ، وتوقف مجرى الفرات ثلاث ساعات تقريبا ووصلت المياه الى قرية فروسيبين المبنية على قمة الجبل ، ثم انشقت الاسود المقامة على جوانب جبل قلوذية ، وفاضت المياه فأحدثت دمارا هائلا في سورية ، وفي السنة نفسها فتك الوباء باثني عشر الفا من اهالي دمياط حتى خلت بيوت كثيرة من السكان .

في سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) زحف نور الدين ثانية الى دمشق فحشد الفرنج قواتهم لرد الغزو الجديد ورد نور الدين على اعقابهم سرا الى حلب .

- ٢٣١٢ -

وفي تلك السنة ايضا ٥٤٦ هـ - ١١٥١ م خرج صلاح الدين من
عند ابيه نجم الدين ايوب في بعلبك، واتجه الى حلب يريد عمه أسد
الدين شيركوه ، فاصطحبه الى نور الدين فرحب به وخصص له
بعض المال لمعيشته •

استيلاء الفرنج على عسقلان

في سنة ١٤٦٤ يونانية (٥٤٧ هـ / ١١٥٣ م) نشب نزاع بين ملك بيت المقدس وأمه ، فاتخذت من برج داود حصنا لها فتوسط الاقطاب وتركوا لها بيت المقدس كما تركوا لابنها سائر المدن وقيادة الجيش ، فسار ابنها الى عسقلان وكانت للعرب المصريين واقام برجا خشبيا ومنجنيقات وأحدث فجوه في سورها دخل منها اربعمائة من الرهبان الداوية ، فهجم عليهم عشرون الفا من العرب وهم مدججون بالسلاح وأهلكوهم ، فانفعل الملك لذلك ، وأراد مغادرة المدينة لولا تشجيع أحد المحاربين له على البقاء ، ثم قام الفرنج بعد ذلك بحراسة الفجوة ومنعوا العرب من ترميمها ، وفي الصباح حمل الملك الصليب واتجه الى المدينة وهو ينادي : من لا يتبع الصليب لا يعد مسيحيا، فاندفعوا اندفاع رجل واحد وبخلوا المدينة ، وقتلوا ما يزيد على خمسة عشر ألف عسكري ، فهرب البقية في السفن الى مصر ، والحقيقة التاريخية هي ان الفرنج احتلوا عسقلان عام ١٤٦٥ يونانية (٤٥٨ هـ / ١١٥٤ م) لكن البطريك ميخائيل السرياني ذكر أن ذلك تم سنة ١١٥٣ م ، وبسبب هذا الانتصار الذي احرزه ملك بيت المقدس انيطت به امارة انطاكية وزفت اليه ارملة صاحبها .

وفي سنة ٤٥٩ هـ (١١٥٤ م) انتزع نور الدين دمشق من صاحبها مجير الدين حربا ، إذ اثار في البداية خلافا بينه وبين زعمائه ، وأخذ يكتب اليه سرا قائلا : احترس من مكر فلان وفلان وفلان وفلان ، لأنهم يكتبون إلي ويريدون تسليمي المدينة ، وأنا لا أريد أن أترك قتال الافرنج وأقاتل العرب ، وصدق مجير الدين ذلك الكلام ففتك بقواده واحدا واحدا حتى قضى عليهم جميعا ، وأصبح دخول نور الدين دمشق سهلا ، وبعد أن دخلها ولي صاحبها السالف مجير الدين بعض قرى حمص ، وقد عامل نور الدين الدمشقيين معاملة طيبة ففرحوا به وظنوا أنه يستطيع التغلب على الفرنج .

وفي هذه السنة قتل الظافر بن الحافظ خليفه مصر ، وخلفه ابنه عيسى وهو في الثالثة من عمره وسمي الفائز ، وفي غياب فارس الدين الامير الكبير تولى الوزار ، العباس ، فسخط فارس الدين على العباس وهدده لانه أخذ يتصرف بون الرجوع اليه ، فخاف العباس وأخذ أمواله وخرج في ثلاثة الاف من الأرمن ، وطلب مساعدة نور الدين إلا أن المصريين تبعوه فضربهم الأرمن ، وقضوا على أكثرهم ، ثم تفرق العباس ورجاله في الصحراء فأبركهم الجوع والعطش ، ولما وصلوا عسقلان برز الفرنج لملاقاتهم ، وعندما رأى الأرمن الصليبان في رؤوس رماحهم ألقوا عنهم السلاح وانضموا إليهم ، وقتل يومئذ من العرب قرابة خمسة الاف ، وقبض الفرنج على العباس وفتكوا به.

وفي تلك السنة سار الخليفة المقتفي الى تكريت وشدد الحصار عليها ، وهدم أبينتها ووجه ضرباته نحو قلعتها ، فأرسل محمد شاه ابن السلطان مسعود الى أمراء الموصل يقول : إن أبائي قد ولوكم هذه البلاد لتنجدوهم ، والآن لم يبق لنا في أرض شنعار كلها سوى قلعه تكريت ، والخليفة يحاول انتزاعها منا ، فنرجو منكم الحضور ومساعدتنا لدفعه عنا ، فاحتشد الموصليون ، وزحفوا الى تكريت ، ولما علم الخليفة بعددهم أصابه الزعر ، فترك عنته وعتاده ، وعاد مسرعا الى بغداد.

وبعد أيام قليلة حشد أمير تركي قرابه إثني عشر ألف جندي وأرسلهم الى تكريت ، فأنقذوا أرسلان شاه بن طغرک السلجوقي من السجن لانه ينحدر من سلاله الدولة السلجوقية ، وخرج الخليفة مع جيشه لملاقاتهم ، وظلوا ثمانية عشر يوما يقفون وجها لوجه بون قتال ، ولما وقعت المعركة هزم أصحاب الخليفة ، وحاول هو الفرار فتوسل إليه رجلان من أتباعه أن ينتظر قليلا ووضعوه أمام الصفوف مع حصانه على كره منه ، فتشجع البغداديون وكروا على الأتراك وانتصروا عليهم وأخذوا غنائمهم ، وكانت فيما قيل أربعمائنه ألف شاة عدا البقر والجمال.

وفي هذه السنة كانت مياة نجله تسيل كالدماء الحمراء .
في سنة ١٤٦٧ يونانية (١١٥٦ م) تحرش البرنس صاحب
انطاكية بطوروس صاحب قيليقية وأخذ يطالبه بالحصون التي
انتزعها الأرمن من اليونان ، والتي أنتزعها اليونان من الفرنج
ليولي عليها الرهبان الداوية جزاء قتالهم في سبيل توحيد
المسيحيين ، فامتنع الأرمن وأصطدموا مع الفرنج عند باب
سقنطرون ، فهزم الأرمن ، وهرب طوروس ، ثم تصالح الفريقان
وتولى الرهبان الداوية تلك الحصون .

وفي تلك السنة سار صاحب مرعش الى إحدى قرى
الأرمن ، فحشد أسطفان أخو طوروس جيوشه وانطلقوا
ليلا ، واختفوا في البيوت ، وعندما فتح باب القلعة في الصباح
نهضوا فدخلوه واحتلوا السور الخارجي ، واخذوا يحفرون داخلا
وبلغهم حينها أن الامير قادم في جيش تركي ، فملكهم الفزع وخافوا
أن ينحصروا بين السورين ، فيشرع بقتلهم الداخـل
والخارج ، فنهبوا المدينة واضرموا النيران في البيوت وفي كل ما
تعذر عليهم نقله ، وهربوا مع جميع الاهالي، وقد ساق هؤلاء الأرمن
الخبثاء المطران نيونيسيوس ابن الصليبي فوصل ماشيا الى دير
كاسليود ، (١٤) وتمكن من النجاه ونظم في خراب مرعش ثلاث
قصائد لأنه كان راعيا يومئذ ، ولما وصل الأتراك عاملوا المسيحيين
معاملة حسنة ، وردوا الى الأرمن العائدين جميع بيوتهم وكرومهم
وأراضيهم ، إلا أنهم سلخوا جلد قسيس أرمني ، وهو
حي ، وبتروا لسانه وأيديه وأرجله ، وأحرقوه بعد ثلاثة أيام
بالنيران ، وما أن بلغ الأرمن ذلك حتى عاملوا هم بدورهم بعض
الأتراك مثل هذه المعاملة القاسية .

وفي تلك السنة سلخ حيا قسيس آخر أرمني في ملطيه ، لأنه أغرى
فتاة مخطوبه حسديتا ، ومضى بها الى الكنيسة ، وحاول
اغتصابها ، فأخذت المسكينة تصرخ مستغيثة ، لكن القدر وضع يده
على فمها حتى أكمل شهوته ، وبعد هذا شاهدها على آخر رمق

فأجهز عليها ، وقتلها وبتر أنفيها وبعض أصابعها لعجزه عن نزع الخواتم منها ، وأخفى ما سرقه منها في قنديل ، ثم أخفى الفتاة في لحاف ضمن المذبح ، ولما خرج والدها وحماها للبحث عنها، أخبرهم بعض الأطفال الذين كانوا يلعبون في الزقاق أنها دخلت الكنيسة مع القسيس ، ولما سألوه قال لهم قد دخلت وخرجت بسرعه ، فأخذوا يبحثون عنها في كل مكان ولم يجدها وشاهدوا ذلك القسيس خارجا من باب المدينة ، فقبضوا عليه ومضوا به الى الحاكم فضربه حتى اعترف بفعلته الدنيئة ، وأراهم جثمان الفتاة وأذنيها وأصابعها ، وقد شيعها الناس بمراره ، أما القس فقد سلخ وقطع إربا إربا وأحرق وهو حي حتى هلك.

وفي سنة ١٤٦٨ يونانية (١١٥٧ م) اتجه البرنس صاحب أنطاكية الى قبرص ، وكانت لليونان فسبى أهلها مع أغنامهم وأبقارهم وخيولهم وأمتعتهم ، ولما وصلوا ساحل البحر قدم القبرصيون زهبا كثيرا مقابل نجاتهم ، فتركهم الفرنج مكتفين بأموالهم ومواسيهم واستاقوا الاساقفة ورؤساء الأبيرة والكنائس والزعماء الى أنطاكية بمثابه رهائن الى أن أخذوا مطالبهم كامله.

في سنة ١٤٦٩ يونانية (١١٥٨ م) حاول اسطفان الأرمني أن يفتك بأخيه طوروس ، وشعر طوروس بذلك فقبض عليه واعتقله عشرة شهور ، ثم عفا عنه تلبية لطلب الأفرنج وانضم الى جيشهم.

وفي سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) حدثت في سورية زلازل عنيفة ، ففي حماه سقطت القلعة وجميع البيوت على أهلها ، وسقطت كذلك قلعه شيزر كلها ، ولم ينج من أهلها سوى امرأة واحدة وحاجب واحد ، أما أهل حمص فقد سارعوا الى خارج المدينة ونجوا وهدمت نورهم وقلعتهم ، وفر أهل حلب من مدينتهم ، وظلوا أياما خارجها للنجاة بأنفسهم من الموت وقد تهدمت بيوتهم وهلك منهم خمسمائة نسمة فقط ، ولم ينج أحد من أهالي كفر طاب وفاميه ، وهدمت بيوت كثيره في الرحبة ، كذلك

اجتاح الزلزال من مدن الافرنج :حصن الاكراد وعرقه ، ولم يبق في اللانقيه سوى كنيستها الكبرى ، ونجا جميع أهلها ، وتصعدت أرضها وانفتحت ودفن في وحلها تمثال مسبوك ، كذلك تصعدت أكثر بيوت أنطاكية وطرابلس .

وفي تلك السنة مات جوسلين في سجن حلب بعد أن تاب توبة نصوحا كما ذكر أغناطيوس أسقفها الذي زوده بالأسرار المقدسه.

وفي تلك السنه أيضا وصل السلطان محمد بن محمود في جيش ضخم كبير الى بغداد ، وشدد الحصار عليها مدة أربعة أشهر إلا أن بعض أقطابه نصحوه بأخذ المال بدلا من الحرب ، وبلغهم أنذاك خبر احتلال ملك شاه أخي السلطان لهمدان وسببها واختطاف نساء زعمائها فضعفت همة السلطان وغادر بغداد وتبعته جيوش الخليفه وفتكوا بعدد كبير من الاتراك نون رحمه ، انتقاما منهم لما أحدثوه من الخراب غربي العاصمه حيث كانوا مخيمين ، اضافة الى ارتكابهم الفواحش مع النساء ضمن المساجد أمام أزواجهن ، والى ما أحدثوه من قتل واحراق للبيوت.

وفي هذ السنة مات السلطان سنجر بن ملك شاه بن ألب أرسلان ابن داود إثر نجاته من الغزاة الذين اعتقلوه.

وفي سنة ١٤٧٠ يونانية (١١٥٩ م) زحف منويل ملك اليونان الى قيلقية واستعاد طرسوس وعين زربه وغيرها ، وأقام فيها مدة فصل الشتاء ، بعد أن هزم طوروس الأرمني ، ثم توجه ملك بيت المقدس وأمير أنطاكية وبطريك الفرنج الى زيارة منويل واتفقوا معه وصالحوه مع طوروس وأحضره اليه ، فعينه قائدا لجميع الجيوش اليونانية في ساحل البحر ، واجتمع اليونان والفرنج والأرمن للزحف على حلب ودمشق وسائر المدن السورية لكن بلغهم أنذاك خبر أفاد أن شعب اليونان يحاولون تعيين ملك آخر ، فسارع الملك منويل في العودة الى عاصمته ، ولم يكمل ما اتفق عليه مع الفرنج والأرمن.

وفي نيسان من تلك السنة حدث طوفان في بغداد خلخل بعض جدران دار الخلافة ، وفر الاهالي الى غربي المدينة حاملين المرضى والعجائز والصغار على الاكتاف خوفا من الفرق ، وبلغت أجرة ركوب الزورق في أحد المعابر أربعة دنانير ذهبية .

وفي سنة ١٤٧١ يونانية (١١٦٠ م) قرر ابن جوسلين الخروج من حارم والاعارة على أطراف حلب ، فنصب له نور الدين كميناً وقبض عليه ثم ألقاه في البئر الذي كان فيه والده.

وفي آذار من تلك السنة وهي سنة ٥٥٥ هـ ، في الثاني من ربيع الأول توفي الخليفة المقتفي بداء الخناق وخلفه ابنه المستنجد .

ابو المظفر يوسف المستنجد بالله - ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م

دام حكمه اثني عشر عاما وحين توفي والده دبّرت له امرأة ابيه التركية والدة أخيه الصغير مكيدة للايقاع به وتولية ابنها، فسلمت جواربها بالسكاكين وأمرت أن يهاجمن المستنجد حالما يدخل غرفته ، لكن احدى الجوارب اقلتت من بينهن وأخبرت المستنجد ، فحشد جنده وقبض على أخيه وزجه في السجن ، ثم أعتقل هؤلاء الذسوة ، فسجن بعضهن ، وقتل بعضهن ، وهكذا ثبتت له الخلافة

أخبار الافرنج في عهد المستنجد

وفي عام ١٤٧٢ يونانية (١١٦١ م) ذهب السير عموري أخو ملك بيت المقدس الى مصر وسلب من المصريين أموالا طائلة ، وعاد لكن ما لبث أن توفي الفائز خليفه مصر ، فارتضى المصريون أن يدفعوا للفرنج كل عام مائه وستين ألف دينار ذهباً ، كذلك هاجم جورجي ملك الكرج مدينة أني وانتزعها من الأتراك ، وغنم منها غنائم كثيرة واعتقل عددا كبيرا من العرب وعاد الى بلده. وفي هذه الفترة امتاز الأمير الموصلي جمال الدين (١٥) بعطفه وحسناته فأرسل المفريان اغناطيوس الى الملك جورجي لافتداء الأسرى العرب ، فاستقبله الملك جورجي أحسن استقبال وأطلق العيد من الأسرى مجانا وحمله هدايا كثيرة الى الأمير ، وبعث معه سفراء كرجيين فاستقبلهم الأمير في الموصل استقبالا حسنا ، ورحب بهم ترحيبا حارا ، وقد وصل المفريان والسفراء الى الموصل والصلبان تتلأأ في رؤوس الرماح ، وقد انعش هذا المسيحيين، كذلك ابتهج العرب بعودة اسراهم.

وفي هذا الزمان نصب الفرنج كميناً لسارق فرنجي ظهر في بغراس فقبضوا عليه وأحرقوه بعد أن كان قد التجأ الى نور الدين ، وأخذ من عنده جماعة من الأتراك وأخذوا يسرقون وينهبون في ضواحي أنطاكية .

توفي ذو القرنين صاحب ملطيه وخلفه ابنه الصغير عام ١٤٧٣ يونانية (١١٦٢ م) كذلك حاول يعقوب أرسلان ومعه مجموعة من الأمراء خلع قلع أرسلان وتوليه أخاه عوضاً عنه ، فتوجه قلع أرسلان الى القسطنطينية وبقي هناك ثمانين يوماً ، وقد احتفى به الملك خلالها وحباه بالرعاية والعناية، وبقي هناك ثمانين يوماً كان يرسل له الملك خلالها كل يوم الطعام مرتين في أطباق ذهبية وفضية جديدة ، وكان يشير له بأبقائها لديه ، وظل كذلك طوال مدة إقامة السلطان في العاصمة ، وفي آخر يوم من إقامته تناول مع الملك طعام الغذاء ، ثم حمله بالهدايا الثمينة ، وأغدق بعطاياه على القسي تركي ، وعاد الى عاصمته ، فأدى له يعقوب أرسلان الطاعة وتهاننا.

وفي تلك الفترة أقام حاكم طرسوس اندرونيقوس اليوناني وليمة لاسطفان أخي طوروس الأرمني صاحب قيليقية ، لكن أسطفان وجد مقتولاً ومرمياً عند باب المدينة ، فغضب طوروس وقتل أكثر من عشرة آلاف يوناني ، لكن ملك بيت المقدس جاء وأصلح ذات البين بين الأرمن واليونان *

وفي عام ١٤٧٤ يونانية (١١٦٣ م) اختلف عسكر قرا أرسلان صاحب حصن زياد عند حصاره مدينة أمد فترك المدينة وانقلب راجعاً ، فتوجه يعقوب أرسلان الى بلد قرا أرسلان واستطاع انتزاع قلعة شوموشكي منه ، وأسر مائه ألف نسمة تقريباً وترك القرى خالية ، وكان بين الأسرى اغناطيوس مطران تل ارسانيوس فأعادته من قماح الى ملطيه ، وبعد يومين أعاد مطران حصن زياد.

- ٢٣٢١ -

في هذا الوقت كانت زوجة البرنس السجين في حلب تناصب العداء ابنها وتنافسها على الولاية ، لكن الزعماء وقفوا في وجهها ، فطلبت من صهرها ملك اليونان أن يذهب الى انطاكية ويتولاها ، لكن البطريرك والاقطاب سرعان ما اكتشفوا الامر ، فسارعوا واستدعوا طوروس من قليقية الى انطاكية: حيث نفى الملكة ، وأعلن الولاء لابنها وأيده في الامارة.

وفي عام ٥٥٨ هجرية (١١٦٣ م) أراد نور الدين غزوضواحي طرابلس ، فحشد جيوشا كثيرة من الأتراك وتوجه الى حصن الأكراد ، وخيم هناك ، لكن الفرنج فاجأوه وانقضوا عليه وعلى جيوشه ، فقتلوا العديد من الأتراك وأسروا البقية واستاقوهم الى طرابلس بعد أن قتلوا واحدا من الأكراد كان قد ساعد نور الدين في الفرار وجعله ينجو.

وفي عام ١٤٧٥ يونانية (١١٦٤ م) فاجأ الموت يعقوب أرسلان عند نهر سانجر على شاطئ نهر أليس ، فخلفه اسماعيل حفيد أخيه ، ثم اقترن بامراته التي هي بنت السلطان .

هزيمة الفرنج وأسر أمير انطاكية وكونت طرابلس

جمع زعماء الفرنج جيشا يبلغ ثلاثة عشر ألف فارس وراجل بقيادة خمسة من رؤسائهم وهم : البرنس صاحب انطاكية ، وقمص طرابلس، وطوروس صاحب قيليقية، وبوقاس اليوناني صاحب طرسوس، والماستر مقدم الداوية ، وزحفوا ليحاربوا نور الدين الذي كان يحاصر مدينة حارم ، فانهزم شر هزيمة ، وأسر الاتراك القمص وبوقاس والبرنس وساقوهم الى حلب كذلك قتلوا الرهبان الداوية قاطبة ، لكن طوروس استطاع ان يهرب الى انطاكية، وقد اقام بطريرك الافرنج مناخه عامة ، وحطم النواقيس ووقف الصلوات ، وقد استطاع نور الدين ان يستولي في هذه الموقعة على مدينة حارم وعلى دير سمعان وقد اسر الرهبان والسكان وساقهم جميعهم عبدا .

وفي عام ٥٥٩ للعرب (١١٦٣ م) سير نور الدين الى مصر الأمير اسد الدين شيركوه أخا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين .

وكان اسم والد الأخوين الأمير أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب أبي صلاح الدين شادي كوبيين ، (١٦) من مدينة بوبين وهي مدينة بارمينة .

وقد توليا خدمه مجاهد الدين بهروز الحاجب أمير تكريت، الذي كان يحب النصراري، وقد هربا الى الموصل بعد أن قتل شيركوه احد نصاري تكريت، وكان عزيزا على قلب اميرها، فاستقبلهما زنكي ورفع من شأنيهما ، وعندما احتل زنكي بعلبك جعل على قلعتها نجم الدين الذي بقي فيها حتى وفاة زنكي ثم سلمها الى صاحب دمشق، كذلك تولي أسد شيركوه اخوه ، خدمة نور الدين ثم ولاه على حمص وكان للأخوين مكانة رفيعة عنده.

وعندما ضعف المصريون استنجد وزيرها شاور بنورالدين، فوجه نور الدين الى مصر جيشا بقيادة الامير أسد الدين شيركوه الذي حاول احتلال مصر ، لكن عندما احس شاور بذلك بعث يهاندن الافرنج ورفض ان يدفع لشيركوه ما وعده به من الذهب والمناطق ، فاحتل شيركوه وجيوشه مدينة (بلبيس) فقام اiban ذلك شاور وطلب من ملك بيت المقدس المساعدة فزحف في جيش كثيف وحاصر بلبيس ثلاثة اشهر بعد أن انهزم شيركوه وتحصن فيها ، لكن ملك بيت المقدس سمح لشيركوه بمغادرة بلبيس والعودة الى بلاده وترك مصر لاهلها بعد ان علم بانهزام الفرنج في حارم شر هزيمة، فوافق شيركوه وعاد إلى دمشق .

وفي عام ١٤٧٦ يونانية (١١٦٥ م) أصبح السلطان قلع أرسلان سلطان قونية يعادي بني داندشمنند بعد أن احتل جادوج وأبلستين وطورنده . واحتل نور الدين بانياس وعززها وأطلق من كان لديه قد أسر من زعماء المسيحيين ومن بينهم بوهميموند البرنس الفتى بمائة ألف دينار ، وذلك بعد أن غزا طوروس الأرمني مرعش ، وقبض على أربعمائة تركي وهدد نور الدين بحرقهم إذا لم يستجب لطلبه بإخلاء الأسرى المسيحيين ، وتوجه البرنس لزيارة حمية ملك اليونان في القسطنطينية ، فأغلق عليه الملك الأموال الطائلة ، وعاد البرنس إلى أنطاكية بصحبة بطريك اليونان اثناسيوس ، فارتاب بطريك الفرنج وأبرم الحرم على الانطاكيين الفرنج ثم ارتحل إلى قلعة القصير ، وفي شباط السنة نفسها توفي وحيد عصره في الطب ، الطبيب المسيحي أمين الدولة ابن التلميذ ، بعد أن بلغ التسعين من عمره، وكان ضليعا في العلوم وكذلك في نحو العرب وفصاحتهم ، وتقلب في أيامه بين خفض العيش وعلوه ، وقيل أن ابنه سأله قبل وفاته : ما الذي يؤلك ؟ فقال : كمية التسعين من عمري ، وسأله كذلك : ماتشتهي ؟ فقال : أن أشتهي .

وفي سنة ١٤٧٦ لليونان (١١٦٥ م) حين اجتاح قرية أليناس الوباء بسبب وفرة المياه وغزارتها ، وردنا خبر غريب عن أهالي

القرية : فقد جاء إليهم رجل تركي وطلب منهم أن يبحثوا عن أول إنسان مات بهذا الوباء ، وكان قد مر على موته أربعة أشهر فبحثوا ، وفتحوا قبره فوجدوا جسده باقيا ويده اليمنى مبتورة ، وهي بجانبه وكفن رأسه وصدره مأكولا ولحيته مقصوصة وعينه مفتوحتين وفمه أيضا مفتوحا شبرا وأربع أصابع ، فسد ذلك التركي فمه وسمره بمسمار ضخم ، ومنذ ذلك الوقت لم يمض أحد في القرية .

وفي سنة ١٤٧٧ لليونان (١١٦٦ م) سقط الملك مذويل عن حصانه ، وأصيب أثناء حرب وقعت بين اليونان والبلغار ، وانقض رجل بلغاري على الملك يريد قتله ، لكن الملك عرفه بنفسه وسأله أن يمضي به إلى القسطنطينية وحلف له أنه سيكافئه ، فلبى البلغاري طلبه ، وأنقذه ووفى الملك بوعده أضعافا ، ويقال ان الملك مذويل سقى زوجته الملكة سما لأنها لم تلد له ولدا ، وخالف شريعة الملوك وتزوج بامرأة ثانية .

وفي السنة ١٤٧٨ لليونان (٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م) توجه أسد الدين شيركوه بأمر من نور الدين إلى مصر فعبر النيل من الناحية الغربية ، وسار مطمئنا حتى الصعيد ، وكان برفقته صلاح الدين بن أيوب ، فاستنجد شاور وزير مصر بالفرنج الذين لبسوه بجيوش كثيفة اتحدت مع جيوش المصريين ، وتوجهوا نحو شيركوه ، فاقترح زعماء جيش شيركوه التراجع من الناحية الشرقية إلى سورية كأنهم سيعجزون أمام القوة الهائلة للفرنج والمصريين ، عدا عن أن جميع الأهالي أعداء للأتراك .

عندها برز شاب شجاع مصارع يدعى بنغوش، وهو عبد نور الدين ، فحمسه على القتال، وقال لهم بأنهم إذا تخلوا عن محاربة الأعداء وعادوا إلى نور الدين هكذا فلاسوف يقطع عنهم المعاش ويطلبهم بما أعطاهم ، لأنهم لا يصلحون لأن يكونوا جنودا ، فوافقه

صلاح الدين على رأيه ، وعقدوا العزم على القتال وقاتلوا على الرغم منهم .

واستطاع شيركوه ومعه ألفي جندي لاغير أن ينتصر على الفرنج والمصريين ، وكانوا أكثر من عشرة آلاف جندي ، وذلك بعد أن أوعز شيركوه لصلاح الدين بأن يبقى في وسط الجيش ليظن الجيش المقابل أنه هو ، ثم ينقلب راجعا ، ونجحت الخطة ، وظن الفرنج والمصريون أن شيركوه انهزم فلاحقوا به لكن شيركوه وقلة من جنوده الأشاوس لحقوا بالفرنج والمصريين ، فأطبقوا عليهم من الخلف وصلاح الدين من الأمام ، فانكسروا وانهزم منهم من استطاع الفرار .

وبعدها سار شيركوه واحتل الاسكندرية بون حرب ، وترك مصر وعاد إلى دمشق بعد أن أرسل إليه الفرنج والمصريون في الصلح، ودفَعوا له خمسين ألف دينار على أن يعود إلى بلده تاركا الاسكندرية للمصريين ، ودفَع المصريون للفرنج مائة ألف دينار ليعودوا إلى بلادهم وبقيت مجموعة من الجند والفرسان لحراسة أبواب الاسكندرية كي لايطمع بها نور الدين مرة أخرى .

وفي العام نفسه (١١٦٧ م) استطاع قرا أرسلان صاحب حصن زياد أن يحتل برجين من أبراج أمد بالتأمر مع حراسها ، لكن بقية الحراس انقضوا على الأعداء وفتكوا بهم ، فعاد قرا أرسلان إلى بلده منهزما وخلفه ابنه بعد أن توفي في (١٧) تموز .

وفي كانون الثاني عام ١٤٧٩ يونانية (١١٦٨ م) توفي صاحب قيليقية طوروس بعد أن انقطع في أواخر حياته إلى الرهينة وحرم أخاه مليح وراثته ، وأوصى أن يخلفه ابنه الصغير ويشرف عليه ابن خالته توماس ، عندها غضب مليح غضبا شديدا ، فقصد نور الدين الذي أمده بجيش تركي توجه به إلى قيليقية ، وأسر ستة عشر ألفا من الأهالي والقسس والأساقفة وساقهم إلى حلب وباعهم ، ودفَع

إلى الأتراك بأثمانهم . فاستدعاه الأرمن وولوه نصف البلاد فأقسم بالمقابل أن يترك للفتى النصف الثاني ، لكنه نكث بوعده وقسمه واحتل بلادهم ، وأعمل البطش ففقأ عيون العديد من الأساقفة والأعيان ، وبتر أيديهم وأرجلهم وسلخ بعضهم أحياء وألقى بهم للوحوش .

وفي عام ٥٦٣ للعرب (١١٦٧ م) أدرك الهرم صاحب الموصل قيم قطب الدين الأمير التركي زين الدين فطرش وعمي ، فانتقل إلى إربيل واكتفى بها ، وقد كانت في حوزته منذ عهد زنكي وفيها توفي ، وتنازل لقطب الدين عن سنجار وحران والعقر وحصون الهكارية وتكريت وشهرزور ، وتولى بعده ولده مظفر الدين وجعل قيمه مجاهد الدين ، واتصف زين الدين ببساطة التصرف وعفويته ، واشتهر بعلمه وعطائه ، ويحكى أن أحد الفرسان جاءه يوماً وبيده ذيل وقال له بأن حصانه هلك ، فأمر له بحصان ، وهكذا تناوب الذيل إثنا عشر فارساً ، لكنه قال : لقد استغربت أنكم لم تخلجوا مني خجلي منكم ، فقد عرفت أن الذيل هو عينة أحضر لي إثني عشر مرة ومع ذلك كله لم أخجلكم ، وأرفض طلبكم وأجزيت لكم العطاء كمن يؤدي فرضاً .

ويحكى أيضاً أن أحد الشعراء أنشده يوماً قصيدة ، لكنه لم يفهم منها شيئاً ، ومع ذلك لم يرده خائباً ، وأمر له بخمس مائة دينار وحصان وكسوة قيمتها كذلك خمسمائة دينار .

في عام ١٤٨٠ يونانية (٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م) استولى سلطان قونية قلع أرسلان على مدينتي قيسارية كبدوكية وسمندو من بني دانشمند ، وانتزع أنقرة وقنقار من اليونان ، وانتزعت من الأمير المعدي المتصل ببني عقيل قلعة جعبر ، انتزعها منه نور الدين ، وأعطاه عشرين ألف دينار وسروج والمالحة وباب بزاعة بدلا من القلعة ، ومكث شهاب الدين زمناً في سروج، لكنه بقي يفضل حياة العز في القلعة على أن الوارد من سروج كان أكثر ، فهكذا كان

- ٢٣٢٧ -

يوضح كلاً سأله أصدقاؤه عن أي البلدين أطيّب بنظره ؟ وفي هذه السنة انتزع قلج أرسلان أنقره وقنقار من اليونان .